س. أيوب

الحزب الشيوعي في سورية ولبنان

١٩٢٢ - ١٩٥٨



منشورات
دار الحرية للطباعة والنشر
بيروت

الحزب الشيوعي في سورية ولبنان

س . أيوب

الحزب الشيوعي في سورية ولبنان

١٩٢٢ - ١٩٥٨

منشورات
دار الحرية للطباعة والنشر
بيروت

صندوق البريد ١٤٨٩
بيروت ، لبنان

مُقَدّمة

دخل الحزب الشيوعي في تاريخ سورية ولبنان كما دخلت الشيوعية في تاريخ العالم. وبات من المتعذر على اي دارس لتاريخ الشرق الاوسط ان يلم بدقائق التطورات السياسية الحاصلة في المنطقة ، دون ان يلم بتاريخ الحركات الحزبية فيها ، ومنها الحزب الشيوعي .

ونحن اذا نظرنا الى الاحداث التي تتابعت على حياة الشرق العربي والشرق الاوسط بالتالي ، خاصة في السنوات الأخيرة ، لوجدنا ان سورية على التخصيص كانت في قلب العوامل المحركة لهذه الاحداث ، سواء بصورة مباشرة او غير مباشرة .

واذا تأملنا في احداث سورية نفسها وجدنا الحزب الشيوعي، والتيار الذي استطاع ان يلفه حوله ، عنصراً اساسياً فعالاً في كل هذه الاحداث .

غير ان الحزب الشيوعي في سورية ليس وليد ايام وشهور ، وليست هذه الدفعة الاخيرة التي اطلقها فورة ظرفية لا اساس لها

ولا مرتكزات . بل هي نتيجة اختمار اجتماعي طويل الامد ، وعمل شعبي دؤوب لا يزال الشيوعيون يغذونه منذ اكثر من ثلاثين سنة .

ونحن اذا رجعنا الى الوراء نتأمل مراحل العمل الشيوعي في سورية ولبنان امكننا ان نميز فيها اربعة مراحل اساسية هي على التوالي : مرحلة النشوء والتركيز وقد امتدت من عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٣٦ ، ومرحلة الانتشار العلني الأول وتمتد من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٨ ، ثم مرحلة الانتشار العلني الثاني وتمتد من عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٤٨ ، واخيراً مرحلة الانتشار العلني الثالث التي امتدت في سورية من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٥٨ ، اما في لبنان فان الحزب الشيوعي لا يزال منذ عام ١٩٥٢ يعيش في فترة هدوء واختمار لا يظهر على مسرح العمل السياسي الا لماماً .

وتفصل بين كل مرحلة والمرحلة التالية فترة من الانطواء والعمل السري نتيجة لظروف سياسية طارئة .

وتحتاج دراسة كل مرحلة من هذه المراحل دراسة دقيقة وشاملة الى مجلد ضخم خاص بها . ولما كان هدفنا هنا ان نعطي القاريء فكرة واضحة عن سير العمل الشيوعي في سورية ولبنان، لذلك فاننا آثرنا التطويل في مرحلتين ، والاقتضاب في المراحل الاخرى . فقد شددنا بوجه خاص على نشوء الفكرة الشيوعية التي كانت تعرف يومذاك اما بالاشتراكية او بالبلشفيكية ، نظراً لأن هذه الفترة مجهولة تماماً من معظم الذين حاولوا ان

يكتبوا شيئاً عن تاريخ الحزب الشيوعي ، كما انها من الناحية الثانية تعطي الخطوط الكبرى التي قامت عليها الحركة الشيوعية وتقدم مادة للمقارنة مع مراحل التطور الشيوعي اللاحقة . وشددنا بصورة خاصة ايضاً على فترة الانتشار العلني الثاني الممتدة بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٨ ، نظراً للدور الشعبي الهام الذي لعبه الحزب الشيوعي يومذاك ، ولنتمكن من ان نلاحق تطورات مواقفه من القضايا الوطنية الكبرى ، سواء في تلك الفترة الهامة او الفترة اللاحقة . وتوافق هذه المرحلة فترة امتداد الموجة الشيوعية في اوروبا وآسيا بعد الحرب العالمية الثانية والتي لم تبق سورية ولبنان بعيدة عنها .

اما فترة الانتشار الاخير الذي شاهده الشيوعيون في سورية بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٨ فلم نتوسع فيها كثيراً ، نظراً لقربها الزمني من القاريء ولعزمنا على بحثها في كتاب خاص لاحق بسبب اهميتها في تاريخ سورية والعالم العربي باجمعه . ولذلك اكتفينا بان نورد هنا اهم خصائصها وميزاتها فقط .

وقد اتبعنا في دراستنا هذه طريقة اقرب الى الاسلوب العلمي منها الى الاسلوب الصحفي ، فتركنا الوثائق تتكلم عن نفسها ، والشيوعيين يتحدثون عن مقاصدهم . وابتعدنا قدر المستطاع عن الاستنتاجات الخاصة والاحكام الاستبدادية ، ولم نقل شيئاً لم نستطع دعمه بوثيقة شيوعية اصيلة مهما بلغت بنا القناعة الشخصية بصحته . فالمهم في هذا الكتاب هو ان نضع امام مواطنينا مرجعاً موثوقاً يستطيعون اعتماده في اصدار حكم صحيح مجرد على

الحزب الشيوعي ومواقفه في سورية ولبنان .

ورغم ان الشيوعيين يحرصون على عـــدم ابراز وثائقهم ومستنداتهم القديمة ، ورغم ان عدداً قليلًا من المكتبات يحوي مجموعات كاملة لهذه الوثائق . فاننا قد استطعنا الحصول على مواد دراستنا هذه من عدد مختلف من المصـــادر نشكر لهم جميعاً عونهم ومساعدتهم .

واخيراً نأمل ان نكون ، بعملنا هذا ، قد بقينا ضمن خط علم التاريخ وادينا لأمتنا بعض ما لها علينا من دين .

س. ا.

بيروت ٣ آب ١٩٥٩

الفصل الاول

نشوء الفكرة الشيوعية في سورية ولبنان

عندما انسحبت الجيوش العثمانية من سورية ولبنان في أواخر الحرب العالمية الأولى لم تترك خلفها اي حزب سياسي بالمعنى الشعبي للكلمة ، ولا اية حياة سياسية حقة في البلاد .

فقد كان العثمانيون طوال مدة احتلالهم وخاصة منذ بدء الحركات التحررية في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، يضربون بقسوة كل محاولة لايقاظ الوعي في الشعب ، او للتخفيف من استبدادهم واستثمارهم .

ولم تكن محاولات المثقفين للتخلص من النير العثماني ، تتعدى حلقات الطلاب في الاستانة وبيروت ودمشق والقاهرة ، او بعض التكتلات الشخصية بين عدد من أصحاب المهن الحرة والمتنفذين .

ولم تصل هذه الحركات التحررية الى الطور الشعبي الصحيح ،

بانتظام عدد من افراد الشعب في اجهزة هذه الحركات بشكل جماعي مدروس، بل انها بقيت حركات تدور في الاوساط العليا ، دون ان تقيم تماساً صميمياً مع جماهير الشعب وتحركها للثورة والعمل.

وعلى هذا الاساس ، فان الارهاب الذي سلطه السفاح جمال باشا على الشعب خلال سنوات الحرب ، واعدام عدد في المناضلين وتشريد آخرين ونفيهم ، قد ادت الى شل كل مقاومة في الشعب وأمنت للعثمانيين بقاءهم .

غير ان هذا الضغط ، وفترة الحرية القصيرة التي تمتع بها الشعب في الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ وانفتاح الشباب المثقف على الحركات الاشتراكية في اوروبا ، قد خلق موجة فكرية جديدة سارت شوطاً بعيداً امام الحركات التي سبقتها .

فالحركات الاستقلالية التي سبقت الانتداب الفرنسي ، كانت تتفاوت في براجمها ، بين الاصلاح من ضمن نطاق الامبراطورية العثمانية ، والاستقلال التام عنها ، وتنصب كل جهودها حول هذا الموضوع دون تطرق الى المواضيع الشعبية الجذرية .

أما الحركات الجديدة التي ابتدأت تختمر في البلاد ، فقد حاولت ان تعالج مواضيع بقيت منسية حتى ذلك الوقت ، وأهمها موضوع العمال وبقية الفئات الفقيرة ، خاصة في جبال لبنان ، حيث تركت المجاعة الشهيرة التي افنت وشردت الالوف خلال الحرب ، جرحاً عميقاً في النفوس وجيلاً كاملاً من المواطنين يعيش في فقر مدقع .

وما ان خرست اصوات الحرب، وفتحت طريق البحر حتى اندفع

آلاف من الشباب يغتربون اما طلباً لرزق اضاعوه في وطنهم ، او خوفاً من فظائع لا تزال صورها حية أمام عيونهم ، وراحوا يضربون في العالم سعياً وراء الرزق والحرية .

وكان من الطبيعي ان تنعكس هذه الحالة النفسية القلقة على الشباب بصورة خاصة فتدفعه للتفتيش عن حلول جديدة لمشاكل حياته ، وللتعلق بكل ما يعرض امامه من مستوردات الفكر والسياسة .

وفي هذه الفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى مباشرة ، شاهدت سورية ولبنان تفتح اول فكرة اشتراكية — شيوعية ، فكانت بذلك من المناطق السباقة في التنظيم الشيوعي والسائرة جنباً الى جنب مع اعرق الدول الاوروبية في العمل السياسي والتنظيم الحزبي .

جريدة « الصحافي التائه »

لعل أهم ما يميز نشوء الحركة الشيوعية في سورية ولبنان . وكانت تدعى يومذاك بلشفيكية - هو انها لم تنشأ كما نشأت معظم الاحزاب الشيوعية في اوروبا ، من انشقاق في الحركة العمالية او الاحزاب الاشتراكية ، وانقسامها بين ماركسيين واشتراكيين ديموقراطيين ، بل انها نشأت ، بعيد الحرب العالمية الاولى ، من اتجاه شيوعي مباشر ، يستمد وحيه الاول مما حققته الثورة البلشفية في روسيا ، وتسانده في الوقت نفسه النزعات

الاشتراكية المعتدلة التي تستلهم الاشتراكية الفرنسية وحزب العمال البريطاني .

والشيء البارز في نشوء الحركة الشيوعية هو عدم الوضوح في مقاصدها وانعدام الدقة في تحديد اساليبها ووسائلها . فان هؤلاء الشيوعيين الاوائل لم يكونوا يدعون الى فكرة ماركسية كاملة سواء كما حددها ماركس او كما شرحها وطورها لينين ، بل ان جل اهتمامهم كان منصباً على بعض الافكار التي تدور بوجه عام حول المساواة بين الطبقات وازالة الحيف اللاحق بفئات العمال والبؤساء من الشعب .

وكانت تتلاقى عند هؤلاء المفكرين مجموعات غريبة من المباديء التي تظهر في التحليل الاخير متناقضة متضاربة فهم متدينون في جهة واشتراكيون ماديون في اخرى ، يبرزون منجزات الاتحاد السوفياتي ويهللون لها ، ثم يهاجمون حكوماته ويصفقون لخصومه . يتنصلون من الشيوعية عندما تبرز بعض افكارها او تصرفاتها التي يمجها الشعب ، ويشددون على نقاط اخرى تلاقي قبولاً لديه ، كل هذا دون ان يتخلوا مرة واحدة عن صفة الاشتراكية التي اخذوها لانفسهم .

ورغم ذلك فقد وضح منذ البدء عندهم عدد من التعابير الشيوعية ، فأكثروا من استعمال كلمة رفيق ، وهاجموا الرأسمالية والرأسماليين في كل مناسبة وحتى دون مناسبة ، وأرخوا استناداً الى الانترناسيونال الثالث ودعوا بكل صراحة لانصاف العمال وحتى لاشتراكية وسائل الانتاج .

ويمتاز هؤلاء الشيوعيون الاوائل ايضاً بأنهم جميعاً من المثقفين الذين ينتسبون الى اوساط موسرة . ولم يكن بينهم في البدء اي واحد من الكادحين اليدويين .

ولعل هذه الظاهرة هي التي تلقي امامنا ضوءاً قوياً على نشوء الحركات الشيوعية لا في البلدان المتخلفة فقط بل وفي البلدان المتطورة ايضاً . ذلك ان رؤية البؤس والظلم ، والاحساس العميق بهما ، والتوق لعمل شيء يزيل الظلم ويمحو البؤس ، هي التي تدفع بكثير من الشباب المثقف الموسر الى اعتناق الفكرة الشيوعية كوسيلة وحيدة لتحقيق هذه الاهداف الانسانية . كما انها من الجهة الثانية تعطينا دليلاً جديداً على ان التفتيش عن منشأ الاحزاب الشيوعية لا يجب ان يتم بين اوساط العمال الفقراء الذين لا يجدون متسعاً من الوقت للتفكير في مثل هذه الشؤون الفكرية العالية ، بل بين اوساط الشباب المثقف الحساس الشديد التأثر بما يجري حوله والسريع الاستجابة للدعوات المتطرفة الثورية . وعندما تنشأ الفكرة الشيوعية وتنمو ، تتجه بطبيعتها نحو الكادحين والمظلومين والبؤساء فتجد عندهم القبول والاستعداد للتلبية .

وهؤلاء الشيوعيون الاوائل رجال فكرة لا رجال سياسة . فهم لا يتطرقون الى المواضيع اليومية الداخلية او الدولية ، بل ينصب اهتمامهم على شرح افكارهم ومبادئهم ودعوة العمال لمساندتهم . ولعل هذا الموقف البعيد عن تقلبات السياسة هو الذي اعطى الحركة منذ نشوئها ، اساساً متيناً وحدد لها حقلاً حاولت

ان تستغله قدر المستطاع .

ومهما يكن من امر فان الحركة الشيوعية الاولى تبدو كأنها حركة رومانطيقية ذات صفات طوباوية تتناول مواضيع محددة دون ان تكتسب صفة الشمول والتناسق ودون ان تنعكس هذه النظرة على جميع مواضيع الحياة فتضبطها ضمن قوالب واتجاهات واضحة محددة .

ورغم ان الصحافة كانت لا تزال في سورية ولبنان في مطلع عهدها ، ورغم ان الحركة الاشتراكية – الشيوعية لم تكن قد اصبحت حركة شعبية ، فان الاشتراكيين – الشيوعيين وجدوا منذ خريف عام ١٩٢٢ صحيفة تنطق باسمهم وتنقل افكارهم . هي جريدة « الصحافي التائه » .

والحقيقة التي لا بد لنا من تسجيلها هي ان هذه الجريدة هي التي دفعت الحركة الاشتراكية – الشيوعية الى الامام ، وعرفت افرادها بعضهم على بعض ، ونسقت جهودهم وساعدتهم على الانتشار والنمو وحفزتهم على الدراسة والتبحر في الاسس الاشتراكية . فاليها يعود الفضل الأول في قيام حركة شيوعية في سورية ولبنان .

صدر العدد الأول من جريدة « الصحافي التائه » في مدينة زحلة في لبنان لصاحبها الاستاذ اسكندر الرياشي ، وذلك بتاريخ ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٢ . وكان الاستاذ الرياشي يصدر قبل الحرب في زحلة جريدة « البردوني » وعندما اعاد اصدارها بعد الحرب دعاها « الصحافي التائه » وهو اللقب الذي اطلقه عليه

زملاؤه نظراً لاسفاره العديدة . وكان عنوان الجريدة كما يلي :
« الصحافي التائه ، البردوني ، جريدة العمال والبؤساء » وكانت تصدر نصف اسبوعية .

الصحافي التائه والاشتراكية

عدد الاستاذ الرياشي ، في افتتاحية العدد الاول من الجريدة ، موقفه من معظم المسائل السياسية التي كانت مطروحة على بساط البحث في ذلك الوقت ، بالاضافة الى ارائه الاصلاحية الخاصة ومبادئه الاشتراكية :

« هذه الجريدة تكون غريبة عن كل مبتذل وحاوية لكل مستغرب وعارفة لكل مستحب لا تقلد ولا تتقلد . تترك التشبه بالكرام لغيرها . تريد ان يكون لها مقامها في شمس الله وتحترم القوم طالما احترموها .

مباحثها : السياسة والاخلاق وفلسفة الحياة والضحك والتاريخ والفكاهة والرواية والشعر والادب على ان يكون لذلك طراز منفرد مختص بها ... تعترف للتآخي بين الطبقات انه الحق الصريح وتحارب لاجله وتحترم الفقير والتعس اكثر من الغني والسعيد .

سياستها مع الانتداب الصحيح الذي تعترف بضرورية اشرافه على البلاد .

تعلم ان حياة البلاد مهجرها وان في القارتين اسد غطارفة من اللبنانيين والسوريين هم امل كل والد ووالدة ونصير هذا

الوطن ودعامة مستقبله وخيرة رجاله ... هذه الجريدة عمومية تعترف للتعاليم الدينية بمباديء تقارب الاشتراكية . لذلك تكون صديقة العامل والمزارع والضعيف وتدافع عن مصالح هؤلاء بكل قواها وتعترف ان المباديء الاشتراكية المعتدلة قد جاء بها الكتابان الكريمان لعيسى ومحمد .

لا تحترم في المثري غناه ولا في حديثه القحة والنزق ومحبة الذات . تكون جوابة سباقة عرافة . تعلم ان للبنان جبل عالي اللواء يكلله الثلج الناصع البياض ولا تدوسه ارجل الاغيار .

وتعلم ان سورية قطر شقيق مشترك المصالح سابقاً وحاضراً ولاحقاً تربطه بلبنان علاقات اقتصادية لا حياة لمتاجرنا بدونها .

هذه الجريدة تحارب الشركات الاحتكارية وتعلم انها الموت الزؤام للفقير والعامل . وتعلم انها اليوم تستثمر عمالها استثمار الرقيق ....

تعلم ان الصحافة من اسباب الرقي والحياة للبلاد التي لا تجارى لذلك تؤكد على كل وطني مساعدتها واحترامها .

لا ترى في الموظف مهما اعتلت رتبته الا خادم البلاد الذي يتقاضى من الشعب معاشه فلها عليه كل حق .

ولا تصادقه ولو كان اعدل الناس فينا ...

كانت تدعى بالبردوني وشعارها ما جاء يوم ظهورها لأول مرة قبل الحرب .

هذي الجريدة مثل بردونينّا فيه مياه عذبة وصخور
فاذا رأت عدلاً تسيل لطافة واذا رأت ظلماً عليه تثور

فعلمت اخيراً انها لو سالت دهراً لطافة لما كان عدل ولو ثارت دهوراً لما استأصلت ظلماً ، فانقلبت على نفسها ودعت ذاتها بالصحافي التائه نسبة لكنية اعطاها الاخوان لصاحبها .

وما الحياة الا صحراء تيه هائلة شاسعة ، نهيم بها دهراً حتى يأخذ منا الردى لبانته . وقليل منا من استورد في تلك الصحراء مورد ماء زلال فاستسقاه لذلك ، والحياة ترهات واوهام .

ولا نطلب الحقائق وهذه كلمات لغير مسمى ، ولا نطلب عدلاً والعدل لفظة في الافواء ، ولا نشكو وقد قال قائل : ان شكوت الهوى فما انت منا . »

تطرح هذه المقالة بالاضافة الى المسائل السياسية مذهب صاحبها الاجتماعي ، فهو يدعو للاشتراكية المعتدلة ويحاول ان يغطي نفسه من هجوم ينتظره بان يقول ان الاديان السماوية تدعو هي ايضاً لمثل الاشتراكية التي يدعو هو اليها .

وما ان وصل هذا العدد الاول من « الصحافي التائه » الى ايدي القراء حتى استجاب احد البلشفيكيين للدعوة الواردة فيه فارسل الى الاستاذ اسكندر الرياشي الرسالة التالية المنشورة في العدد (٥) تاريخ ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٢ وفيها يقول :

« اخي الصحافي التائه :

ماذا ؟ أحقاً في لبنان جريدة للبؤساء . وفي زحلة صحافي يقول بالاشتراكية ؟

وما شأن هذا الالحاد يا اخي في لبنان المبارك وما معنى نشر

هذه المباديء في الجبل المسكين ؟

تريد ان تبشر بالتآخي بين الطبقات وان تحارب لاجله وتحترم التعس والفقير ، فهلا حذرت الوشاة وغدر المتزعمين ؟

لكن لا بأس ، ان هذه البزرة الصالحة ستنبت اذا تدبرها المزارعون ، فاجعل لي نصيباً بالاحترام الذي سجلته للبؤساء وانا منذ الساعة « رفيقك واخوك » الامين ...

يهمني من مباحث جريدتك ثلاثة ابواب هي الاخلاق ، وفلسفة الحياه والادب ، فاذا شئت ايها الرفيق ان تفسح لعبرات هذا الكويتب مجالاً على « البردوني » فاجعله رحباً لافتح باباً تركته انت موصداً هو باب البكاء ، وهل نسيت ان الصحافي التائه هو جريدة البؤساء والفقراء وان الدموع هي ترجمانهم .

لعلك تقول انك تريد ان تبعد الشجون عن قلوب جنودك ايها الرفيق ، ولكن لا تنسَ ما اوصانا به الاستاذ الكبير « روسو » بان الدموع تهذب النفس وتفرج الكرب اكثر من الضحك والفكاهة ..

اكتب اليك الان على جناح السرعة لابثك كلمة شكر على تعزيتك ايانا بالصحيفة الجديدة ولادعو لك بالنجاح والتوفيق .

الشبح الباكي

عن الكوخ الاحمر في مدينة الاغنياء

في ٧ ت ١ للسنة السادسة للانترناسيونال الثالث .

ولعل هذه الرسالة التي ارسلها الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك

(الشبح الباكي) الى جريدة الصحافي التائه هي اول التقاء اشتراكي في سورية ولبنان . وتظهر فيها خصائص بارزة اهمها ما يلي :

تمتاز الروح المسيطرة عليها بالرومنطيقية والتشاؤم وتجنح نحو الشكوى والبكاء وبث الألم . ولعل الاسم المستعار كاف وحده للتدليل على ذلك . كما يبدو فيها غموض المفاهيم الشيوعية رغم ان شيوعيتها واضحة . فالكوخ الاحمر في مدينة الاغنياء ، يعني الفكرة الشيوعية في بيروت . واستخدام التأريخ بالنسبة للانترناسيونال الثالث يعني تعلقاً واضحاً بهذه المنظمة الدولية . ولكن القول ان سنة ١٩٢٢ توافق السنة « السادسة » للانترناسيونال ليس الا خلطاً بين تاريخ ثورة ١٩١٧ وتاريخ تأسيس الانترناسيونال الذي هو ١٩١٩ . وهذا يكفي وحده ليدل على ان « الشبح الباكي » لم يكن ضليعاً في الشؤون الشيوعية ، بل كان متعلقاً بافكار عامة سمعها ووقعت في نفسه موقعاً حسناً ، فحفظها دون تمحيص . كما ان هذه الرسالة افتتحت عهد استعمال كلمة « رفيق » في الصحافي التائه .

وفي العدد التالي (عدد : ٦ تاريخ ١٨ / ١٠ / ١٩٢٢) حملت الصحافي التائه على الصفحتين الثانية والثالثة الكلمة التالية للاستاذ يوسف ابراهيم يزبك بتوقيعه المستعار بعنوان : «تذكارات المجاعة في لبنان وصلاة بائسة » يصف في البدء امرأة كانت غنية محسنة ، التقى بها قرب الكنيسة ، جائعة وسخة معها طفلتان احداهما عمياء والكل في جوع . وتصلي المرأة ليسوع المسيح قائلة :

« يا يسوع ، رمز المحبة والفقر وواضع المساواة بين ابناء

البشر ، انظر الى حالتي وشقائي وارحم عذاب فؤادي .

لقد اهلكني الجوع ورمى بابنتيّ جنبي بـــلا حراك . انهما بريئتان يا الهي لم تقترفا اثماً ولا ذنباً فلماذا تعذبان ؟ هل خلقت العالم كي تعذبه ؟

« يقولون » انك بذلت دمك لاجلنا فلماذا اوجدت الجوع ؟ يا ذلاه من الجوع المؤلم يا رب ، فانه اشد مرارة من الكأس التي شربتها على الصليب !

« انظر يا رب الى هذه المدينة الملآنـة بالمعاصي والى هؤلاء الاغنياء الذين افسدوا الهواء برائحة خمورهم ، انظر الى خشارتهم (فضالة موائدهم) المطروحة في مزابـل قصورهم والكلاب تمرمغها (تقلبها) بارجلها ولا يجرأ جائع على أن يقترب منها .

« انظر ... (وهنا تخنقها العبرات) ما هذا التفريق بـين ابناء الانسان يا رب ؟ ولماذا لا تساوي بينهم على الارض كما تساوي بينهم في السماء ؟ .

« المساواة . المساواة ايتها السماء !

« يا الله . اني ارى صليبك حارساً مقبرة اغنى اغنياء القرية ، والغني يتمتع برأفتك في مماته كما يتمتع بماله في حياته . وهنا قربه قبر بائس فقير لم تعرف صاحبه في حياته وبعدت عنه في مماته ... انك انت نصير الغني (يا العياذ بالله ، لقد كفرت الشقية) .

« ... ويلاه ! هذه القرية تموت باهليها ، وتلك المدينة تشقى بذويها ، والجوع يفتك فتكاً ذريعاً ، والامراض تقتل قتـلاً مؤلماً ، والفقير يصرخ الى ربه ، والغني لا يسمع صوت قلبـه ،

والقساوة سائدة ، والعيون متحجرة والقلوب متصلبة ...

« المساواة ، المساواة ايتها السماء !

« ثم ساد سكون عميق بينما الوادي يردد صدى صلاة الجائعة ، وانتشرت رهبة خرساء كانت تبتديء في قرارها نغمات فلسفية فصيحة ..

الشبح الباكي

عن الكوخ الاحمر في مدينة الاغنياء .

في ١٦ تشرين الأول السنة السادسة للانترناسيونال الثالث . »

استخدم الاستاذ يزبك في قطعته هذه الاسلوب الادبي الخيالي وسيلة لنشر افكاره على ما كان سائداً في اوساط الادباء في ذلك الوقت . وقد اوضحت هذه القطعة المواضيع الاساسية التي ستطرقها هذه الحركة الناشئة في مدى اشهر طويلة كما وضعت بعض الشعارات التي استمر الشيوعيون يرددونها سنوات عديدة من بعد .

فقد ابرز الكاتب عدم مسؤولية الانسان في ما ينزل به من عذاب والقى بهذه المسؤولية على القوى الالهية ، كما صور المدينة والاغنياء ابشع تصوير وطرح شعار المساواة بقوة واصرار .

اما الشيء الجديد في القطعة فهو التهكم على القوى الالهية واتهامها بمحاباة الغني في الحياة وبعد المهات على حساب الفقراء والضعفاء .

وفي العدد نفسه من جريدة الصحافي التائه اورد الاستاذ الرياشي مذهبه تحت عنوان « مذهب التائه » حيث يقول :

« ٥ - في باريس كرهت كل شيء الا جمال المرأة وبؤساء مدينة النور لانهم اقرب للقلب من كل بائس ، ووجدت في وطن روسو وجوريس واناطول فرانس ان الرأسمال هو اساس كل عمل مادي فكرهت الرأسمال واصحابه وصرت اشتراكياً ...

« ٧ - رجعت لاوروبا فعرفت في المانيا « بله بل » زعيم الاشتراكيين فقال لي « اللاوطنية وطن العالم » .

اللاوطنيون طبقات طبقات في الشعب وآخر هذه الطبقات التائهون »

فهو في هذا المقطع يثير موضوعاً جديداً سوف يكون فيما بعد مجال نقاش فكري طويل بين الشيوعيين وخصومهم هو « اللاوطنية » . غير انه يورده ، كما هو واضح ، بشكل مقتضب موجز .

وما لبثت حلقة الاشتراكيين ان توسعت ، واصداء مقالات الرياشي ويزبك ان تجاوبت في افكار كثير من الشباب الذين ما كانوا يعرفون كيف يعبرون عنها . وما ان صدر العدد السابع من الجريدة حتى كان يحمل استجابة اشتراكي جديد تستر تحت اسم مستعار هو : « الباكية الخرساء » . فقد جاء في هذه الرسالة الموجهة « الى الشبح الباكي » ما يلي :

« يا اخي

« هذه يدي اليمنى اصافحك بها عن اخواتي البائسات ، وهذه يدي اليسرى امسح بها دموعك المتراكضة على خدك لأن لا منديل لي لأمسحها به ...

« هنيئاً لك يا اخي فانت واحد من اخواننا الذين تفردوا ونبغوا وكان لهم مقدرة التعبير عن دموعهم ومعناها وما تتضمن من انين القلوب واختلاجاتها ، فكانوا بيننا انبياء واولياء ، نقدس اسماءهم ونقسم بهم . وانما ويل لذلك الاخ البائس الذي يئن وينوح وحده وليس له قوة التبيان عن انينه وبكائه ، بل ويل لتلك الاخت التاعسة الشقية التي تقضي طيلة يومها باكية ناحبة ورأسها ملقى بين يديها واذا سألتها عن سبب بكائها ، كان جوابها تزايد تساقط دموعها وانتشار لآلئها على كفها .

« وهناك اخ لنا اكثرنا تعاسة واشدنا بؤساً وهو الذي احترق قلبه فاصبح رماداً والذي تحجرت دموعه واصبحت عيناه جامدتين ، فهذا لا يبكي ولا يئن ولا نعرف انه من اخواننا الا من احناء رأسه وتقطب اسرته وارتفاع صدره وهبوطه .

« فلنبكِ يا اخي ولنبكِ كثيراً لأن في البكاء راحة ...

« وها هو اخونا « التائه » قد فتح لنا حقلًا واسعاً في صحيفته نملأه بفلسفة الدموع وفلسفة البؤس والبؤساء .

« واعلم يا ابن الكوخ الاحمر ومدينة الاغنياء ان كل واحدة من اخواتك البائسات هي لك ام رؤوم ولكن اكثرهن عطفاً عليك هي

اختك

الباكية الخرساء

عن الروض المقفر في مدينة الاطلال . »

وفي العدد الثامن ظهر اشتراكي رابع تحت توقيع « شبح

لا يضحك ولا يبكي » وكان على ما يبدو من طينة جديدة اذ انه كتب تحت عنوان : « سهام لا اريدها مؤلمة » ما يلي :

« جميلة تنهدات « الشبح الباكي » ، وبكاؤه يبكي الصخور الصماء . وقد رن صوته المخنوق بالعبرات في قلب اخته «الخرساء» فاطلق لسانها فنطقت بما كاد يكون افصح وابلغ من صيحاته المبللة بالدموع ...

« ولكن اتكتفي بالبكاء «يا باكي» وبالدموع «يا خرساء»؟ هل ببكائك تضحك العمال ، وبدموعك تروي غليل البؤساء ؟ كلامكما يفتت قلب الجلمود لو كان للجلمود قلب . ولكن اتريان له سبيلاً الى قلب الغني فيلويه ويعطفه على الفقير ؟ اني لا اشك في ان شمالكما لا تدري بما تصنعه يمينكما ... فلا تقفان عند عباراتكما وعبراتكما ، بل تحولانها درراً وجواهر تتساقط من لسانيكما وعيونكما في جيب المسكين المعوز ...

«وعلى سبيل المصادفة اقول : يجدر بنا ان نتخذ الوسائط الفعالة – لا سواها – للحصول على ما نتوخاه ... »

ومن الواضح ان هذا الاشتراكي الجديد كان اقرب الى حاجات العمال والشعب من رفاقه الآخرين . فهو لا يؤمن بالبكاء والاشباح بل بالعمل والعمل وحده لرفع سوية البؤساء والفقراء .

ولم يكن « شبح لا يضحك ولا يبكي » وحيداً في دعوته الى التنظيم العملي بل سانده فيها صوت جديد اتضح منذ المقالة الاولى ان دراسته للموضوع عميقة ومتينة فقد كتب بتوقيع

« صلاح محفوظ ، لبناني طالب حقوق في مصر » ونشر مقالة في العـــدد : ٩ ، تاريخ ٢٨ - ١٠ - ١٩٢٢ وهي بعنوان : « في سبيل المبدأ » وجاء فيها :

« مهلاً ايتها الاشباح الباكية والصامتة فما كان البكاء والصمت ليسدا ثلمة في بنائنا الاجتماعي او ليشيدا لنا حائطاً نتكيء عليه ساعة التعب ...

« ونحن البؤساء الباكين لنا بين الدمعة واختها انة نلفظ معها كلمة شكوى فلتكن هذه الكلمات اكثر من الدموع ولنجعلها احجاراً جميلة في بناء تربيتنا الاجتماعية الجديدة .

« ان التطور الفكري الذي وصل اليه الشرق في الآونـة الاخيرة تطور لا يستهان به فاذا تدبرناه كان لنا فأل خير ننهض به من هذا السكوت المستولي علينا ونعزز المذهب الحر العادل الذي تنزع اليه نفوسنا .

« فليجعل الشبح الباكي بين كل جملة واختها من تعـــابيره الخيالية المفجعة جملة او كلمة تكون درساً مفيـــداً في المساواة والاخاء ، ولتضع الباكية الخرساء عظة من العظات البليغـات تلقيها على مسامع الاطفال فتكون بذلـك قد زرعت في قلوب صغارهـا حب الاشتراكية والتسوية في الانتاج ... وليكن الشبح الصامت ناطقاً جسوراً لأن الصمت في غير وقته عي وعجز ، وليلقِ على تلامذته ورفاقه محاضرات في ثورات العمال واعتصابهم ، وفي ويلات الاحتكار واستبداد اصحاب المال الذين هم قبلة غايتنا لعلنا نخفف من غلوائهم . وليكتب لنا الصحافي التـــائه نتفاً من

حوادث العمال والبؤساء في بلاد الله لأن الجريدة منهم ولهم وهو احد قوادهم .

« لندع الحكومة ومطاردة الاشقياء والمجلس النيابي واصحاب الوحدة ودعاة الانفصال ولننصرف بكليتنا الى المبـــدأ الذي اتخذناه لانفسنا دستوراً ومنهجاً سوياً .

« ولنبحث عن اقرب الطرق التي تمكننا من تشكيل حزب للتآخي والاشتراك نقف به سداً منيعاً في سبيل تيار الرأسماليين الذين اوشكوا بتصلفهم ان يعيدوا بنا تمثيل مأساة المجاعـــة وضحاياهـــا .

« فليكن لنا في الشرق حزب ينادي بالتسوية بين الطبقات علنا نجبر عثرات الكرام . والسلام .

« مصر في ١٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢

صلاح محفوظ

لبناني طالب حقوق في مصر »

ويظهر على ما يبدو ان هذه هي اول دعوة علنيـة لتأليف حزب شيوعي في سورية ولبنان . ثم تبعتها في العدد ١٢ (المرقم خطأ ١١) تاريخ ٨ – ١١ – ١٩٢٢ دعوة اخرى ظهرت بتوقيع « سعاد حكيم – الشام » تحت عنوان : « في سبيل المبـــدأ » وفيها ما يلي :

« اما سيادة الغدفلليد العاملة التي لولاها لوقف دولاب الاعمال فشلت حركة العمران . » (كتاب المساواة – لمي .)

« ها نحن قد بدأنا نقف الى جانبكم ننادي بالمبـاديء الحرة

التي تنادون انتم بها لأننا اوشكنا ان نتفاهم واياكم ونتساوى .

« قلت امس بالاشتراكية فقامت نابغتنا ووضعت كتاب « المساواة » فصلت فيه المذاهب العديـــدة التي تلتف حول الاشتراكية تفصيلًا ضافياً ... » وبعد ان تورد الكاتبة مكاسب اليد العاملة في اوروبا واميركا تقول :

« هذا في بلاد الله حيث تألفت الاحزاب المنتظمة وكان لها في مراكز الحكومة ايد عاملة قوية تجبر القوة المتسلطة على تنفيذ ما تريد . واما عندنا فلا تزال هذه المباديء بالمهد تخنقهـــا لأن الجهل لا يزال متسلطاً على الاكثرية الساحقة في البلاد وهذا يحتم علينا ان نجاهد في سبيل انمائها الجهاد الحق ... لاننا ان لم نضحِ في هذا السبيل كل ما نقدر عليه لا يكون لنا تآخٍ ولا يكون لنا تساوٍ بين العمال واصحاب المال ... »

ومنذ تلك الفترة الاولى تنبه الاشتراكيون وخاصة الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك لاهمية التثقيف العقائدي في الحركة الشيوعية ، واعطاء المنضوين تحت لوائها مادة اذاعية يدافعون بها عن مبادئهم ويقارعون خصومهم . ولذلك رأينـــاه في العدد ١٣ ، تاريخ ١٢ / ١١ / ١٩٢٢ يكتب مقالة طويلة اخذت الصفحة الثانيـــة بأكملها بعنوان : « درس في الاشتراكية » وجههـــا الى « اخي العامل » . وهذا بعض ما جاء فيها :

« ايها الرفيق

« سأسر اليك بكلمات عذبة تنساب كالجدول الصافي ، لا هي ثورية ولا بنت الكفر تدعى ، ابوها المساواة وامها الاخاء ، هي

دروس في حقوق الاجر وفي حرية الحياة يجب ان يفهمها كل مظلوم وان يطالب بها على رؤوس الاشهاد ، وان يؤيدها كل حر تجري في عروقه دماء آدم وحواء .

اجل اني لا ادعو العمال للثورة على النظام « الفردي » لأن الافكار لم تتهيأ لها حتى اليوم ، ولم تتسرب الديموقراطية الى اعماق اخلاقنا وعاداتنا ، وقد قل من عرف في بلادنا مباديء الاشتراكية ونظامها . بل يظن الكثيرون ان الاشتراكية هي جمعية فوضى واضطراب يديرها افراد ذوو حركات ثورية (!!) ولكنهم جهلوا — لنقص في تربيتهم الاوتوقراطية — ان الاشتراكية هي اسمى مما يظنون وأقرب الى المنطق من كل جمعية غيرها تسعى الى السلام والتآخي .

اني لا انكر ان هناك افراداً شذوا عن المباديء الاشتراكية المعتدلة وتطرفوا في مطاليبهم غير المعقولة ، وان بعضاً منهم سكروا بخمرة الخيال وشاؤوا تنفيذ مبادئهم بقوة السيف ، ولكن هؤلاء لا يؤثرون على غاية الاشتراكية وعلى سيرها الى الكمال في الانسان .

قلت اني لا ادعو (الآن) العمال للثورة على النظام الفردي — وأريد بالنظام الفردي القانون الذي يسير عليه العالم المحتكر والرأسماليون وهو نقيض الاشتراكية التي تسعى الى قلبه وابداله بنظامها — ولكني اود ان ادخل مع اخواني العمال الى باب الاشتراكية .

الاشتراكية يا اخي العامل ، هي عقيدة عبقرية اوجدتها

الديموقراطية بطريقة مستحبة تسعى الى نشر الراحة والسلام بتقسيم الاغلال على قدر الاعمال ، والى زرع بذور المساواة دون ان تسيء الى مخلوق او ان تهضم حقه .

« ولكي اتمكن من ان آتي ببعض مباديء الاشتراكية لا بد لي من ان « اختصر » لك مسببات وجودها مع علتها الاجتماعية .

« يقولون في « الكتاب المقدس » ان الله يوم طرد المرحوم جدنا من الفردوس قال له : اني ادعو عليك يا آدم بأن تأكل خبزك بعرق جبينك ! فأخذ آدم يشقى ويكد ويتعب سعياً وراء رزقه ، وحذا حذوه ابناؤه واحفاده وذريته ، وكان ان من لا يعرق جبينه من هؤلاء لا يتمكن من اكل خبزه . فلماذا عرق جبين بعضهم ولم يأكلوا خبزهم بينما غيرهم يأكل افخر الخبز بلا عرق جبين ؟ ولماذا انا غني صاحب مليون دينار وانت فقير لا تملك درهماً وكلانا ابناء آدم الفقير !؟

« عرق الجبين !!! احفظ هذا جيداً .

« وجد الانسان فقيراً وكانت له الدنيا كلها « مشاعاً » يزرعها ويستغلها ثم جاء ابناء الانسان الاول وورثوا عن ابيهم الارض ، واخذوا يحرثونها . ووجدوا ان من لا يزرع لا يحصد ومن لا يشتغل كل النهار ويعرق جبينه لا يتمكن من اكل خبزه ، وان من يشتغل نصف نهار يأكل نصف أكله ومن يعرق جبينه كثيراً يأكل كثيراً ومن لا يعرق لا يأكل . وان الارض للجميع ولكل فرد الحق بالحياة . فلماذا يملك الامير حمود ثلاث مزارع

ويبذخ من دخلها مع انه لا يعرق جبينه، بينما المزارعون يكدون ويتعبون ويقضون نهارهم وقسما من الليل في العمـــل وهم لا يملكون ارضاً ، بل ان ثمرة اتعابهم يأكلها صاحب المزارع ؟

« ان للعمل « قيمة » و « ثمناً » ، فاذا عملت النهار كله كان من ثمرة العمل ما يوازي قيمة او ثمن عملي واذا عملت ساعة كان لي من ثمرة العمل ما يوازي قيمة ساعة .

« اظن ان اتعب عمل بين اعمال العالم كلها هو ادارة حكومة او ادارة شركات كبرى كالملاحة والسكك الحديدية والمعامل وأظن، بل هي الحقيقة، ان اكبر مدير في اكبر ادارة لا يتناول مرتباً شهرياً يزيد على ٦٠٠ ليرة اي ٢٠ ليرة يومياً . ولنفترض ان ركفلر او فورد او كارنيجي او زميلاً آخر لهم يعمل العمل المتعب الذي يعمله مدير الحكومة او الشركة فكم مليون نهار يجب ان يعيش لتكون ثروته كما هي الان من الاثراء ! وكم الف حكومة والف شركة يجب عليه ان يدير في ساعة واحدة لتكون عنده هذه المليارات المذهبة ؟

« عرق الجبين !!! لا تنس هذا ابداً ... »

«تأمل يا اخي عمال مناجم الفحم في اميركا او البلاد الانكليزية يشتغلون ثلاث عشرة ساعة على ضوء القنديل لانهم ينقبون في جوف الارض محرومون من نور الشمس والهواء النقي ، تأمل انساناً يرضى بتلقاء ارادته بان يحرم من نور الشمس ـ هبة الله على مخلوقاته كلها وحيواناته ـ وبان يعفن صدره الهـــواء العطن والرطوبة النتنة وروائح المعادن الكريهة ، تأمله يشقى ويحرق

جسمه الغازات السامة وتسبب لصدره استعداداً للسل وللامراض القتالة ، تأمله ينهك قواه وعائلته العديدة الفقيرة البائسة المسكينة الجائعة ترقب بفارغ الصبر رجوعه عند الفجر او في الليل ليشتري لها ما تسد به الرمق ، تأمل نوابغ الفلسفة والعلم والادب يطوون ليلهم متضورين جوعاً ويعرضون ثمرة عقولهم الكبيرة ونبوغهم المقدس للبيع فيعرض عنها المتمولون ، ثم تأمل الرأسمالي وصاحب المناجم والامير المثري صاحب الرأس الفارغ من الدماغ والذكاء ، اجل يا اخي العامل يا صاحب الحق الضائع ، تأمل هؤلاء الناس يأكلون ثمرة اتعاب اعمالنا دون ان يحركوا يداً او عقلا او آلة للعمل ، ويجارون في استنباط الملذات والملاهي والفجور والشهوات وينفقون عليها الاموال الطائلة التي يكسبونها من سهرنا ، فماذا تقول ، خصوصاً وانك لم تنس الكلمة الهائلة « عرق الجبين » . افلا يؤلمنك هذا النظام الجائر العاتي المستبد الظالم وتتساءل كيف يجوز للامير حمود هذا البذخ مع ان موجد ماله وسبب ملذاته يتضور جوعاً . وهذا ما سندرسه في عدد قادم .

« هي اسطر سود يقرأها العامل باكياً والفقير شاكياً ، اما الغني فلا دمع ولا شكوى ، هو بمأمن ، والمال يملأ صناديقه من غوائل الايام ونكباتها .

« الا لله نفوس شاكية وعيون باكية تئن من مظالم الاحتكار وتضرع الى الاشتراكية الحرة لتمنع هذه الارواح من ان تطير الى ربها ...

الشبح الباكي

عن الكوخ الاحمر في مدينة الاغنياء .

في ١٠ ت ٢ للسنة السادسة للانترناسيونال الثالث . »

ونلاحظ في هـذا البحث محاولة لترسيخ الافكار الاولى التي بحثها الاستاذ يزبك في «تذكارات المجاعة في لبنان» وأهمها المساواة المبدئية بين جميع البشر ، واستثمار الاغنيـاء للفقراء ، وتوسيع هذه الافكار واعطائها شكل بحث علمي لا قطعة أدبية. فهو يبحث في الثورة التي يراهـا في قرارة نفسه حتمية وان كان لا يدعو اليها « الآن » ، كما انه يشجب التطرف الاشتراكي وينفي عـن الاشتراكية صفة الفوضى والخيالية. ولعل التشديد على «شيوعية» الارض هي الفكرة الهامة الاساسية التي تبرز في هذا البحث والتي استمر الشيوعيون يشددون عليها حتى الحرب العالمية الثانيـة . ويمكن القول ان هذا « الدرس في الاشتراكية » هو أول بحث عقائدي ظهر في سورية ولبنان على الصعيد الصحفي الشعبي .

وقد اتبع الاستاذ يزبك درسه الاول هذا بدرس ثان بعنوان « درس في الاشتراكية » ايضـاً صدر في العدد : ٢٢ تاريخ ١٤ / ١٢ / ١٩٢٢ وهذا بعض ما جاء فيه :

بعد ان يقص الكاتب حادثة وقعت لاحد اثرياء عكار عندما وقع في غرام راقصة في بيروت فأنفق عليها المال وأحرق امامها ورقة مئة ليرة مصرية لتولع سيكارتها يقول :

«أو لم تكن الارض في عكار مشتركة يوم خلق جدنا؟ فكيف يملك هذا الامير املاكه الواسعة ويحرق مائة ليرة ورقة واحدة بينما المزارعون في بلده ليس لهم ذراع أرض بل انهم يهاجرون

مئات ومئات الى ما وراء البحار هرباً من حراجـــة موقفهم .
وكيف يملك هذا الغني ليراته المصريات مع انه لم يأت عملاً مدة حياته ولماذا يحرم العَمَلة من الاملاك والخاملون يرزقونها عفواً .

« أنا لا اقول يا اخي قول « برودون » بـأن الامتلاك هو اختلاس لكنني اقول مع النظام الاشتراكي المعتـــدل بوجوب مباحة (اباحة) الاملاك بين العاملين وتقسيط الانتاج بقـــدر الاتعاب وقيمتها .

« ان الارض مشاع — كما ذكرت سابقاً — بين كل العاملين، ولكل قطعة منها ، فالاستقطاب المالي او العقاري لا يحلله العقل الا بان اصله هو تنازع وحشي جرى على الوجه الآتي او مـــا يقاربه . »

ويشرح بعد ذلك كيف استولى جد الامير حمود القوي على املاك جيرانه الضعفاء المحتاجين بالادانة والاحتيال ثم يقول :

« الله !! لله !! انا وأنت يا اخي العامل نتعب ونشقى وهيهات ان نشبع ، والامير حمود يأكل ثمرة « عرق جبيننا » دون ان يتعب ويعيش عالة علينا . وفوق هذا يستبد بنـا ويهددنا بالطرد من « املاكنا » وتخفيض الاجـــور اكراماً لقوة املاكه المدخرة .

« ان قوة المال واستقطابه هما اللذان اوجـدا النظام الفردي فيجب ان يموت استقطاب المال ويقوم على انقاضه مذهب التعاون، وليس لهذا المذهب النبيل العالي الا ان تتدبره ايدي الاشتراكيين المفكرين فيعيش. فهل في فؤادك نزوع الى هذا المذهب السامي .

ارسل جوابك الى الصحافي التائه .

الشبح الباكي

« من الكوخ الاحمر في مدينة الاغنياء
في ٤ كـ ١ للسنة الثالثة للانترناسيونال الثالث . »

ونلاحظ في هذا الدرس تشديداً واضحاً على ملكية الارض ونقلها من الامثلة العامة الاوروبية الى امثلة محلية يحسها سكان لبنان . وهذه الطريقة من اشد الوسائل الاذاعية فعلًا في النفوس. وينتهي في الوقت نفسه بدعوة علنية الى تأليف حزب شيوعي جاعلًا جريدة الصحافي التائه واسطة الاتصال بين المحبذين . كما نلاحظ في هذه المقالة تصحيحاً لسنوات الانترناسيونال الثالث وهذا يدل على بدء في دراسة الموضوع الشيوعي دراسة صحيحة .

وفي الاشهر الاولى لعام ١٩٢٣ برز على صفحات الصحافي التائه كتاب اشتراكيون جدد منهم الاستاذ نقولا حرب الذي كتب مقالاً في العدد : ٤٤ تاريخ ١٩٢٣/٣/١٠ قال فيه متوجهاً للاستاذ الرياشي :

« سلام ايها الرفيق رسول المساواة والاشتراكية المعتدلة بيننا ... ادهشني فيك انك اول من قال بيننا بحقوق البائس ونادى بمبدأ لن يتسنى لك ولي ان نرى تعميمه وانما ثق وآمن ان المستقبل للعامل ، ولما كنت رغماً عن اعتقادك فيّ انني من الرأسماليين ، على تفاهم تام معك ومع الرفاق ، قدمت لك لفاً رؤيا هبطت علي ليلًا ، ستحققها الايام ، مهما تعالت العقبات وتكاثفت العروش : »

وتبدأ الرؤيا بسرد حالة شيوعية سعيدة بين البشر قبل ان يتملك الافراد الارض ، ثم الويلات الناجمة عن التملك ، ثم شيوعية التعاليم المسيحية ، حتى يقول في نهاية الرؤيا :

« وعدت فرأيت امراء مكبلين بالحديد وعروشاً محطمة وتيجاناً مدعوسة وقصوراً خربة ، والذين كانوا البارحة يبكون ، على انقاضها يرقصون ، وبعضهم ينادون ثملين : لنثأر لاجدادنا واخواننا عما نزل بهم من العبودية ، ولننظر الى الاجيال المقبلة بعين رضى وارتياح ولنثق بالنصر لأن المستقبل لنا . »

كما نشرت الجريدة ايضاً في العدد: ٤٨ تاريخ ٢٤ - ٣ - ١٩٢٣ فقرات من كتاب « للرفيق فؤاد شمالي » الى جريدة الاهرام المصرية . وتقول ان فؤاد الشمالي هو « النقيب عن نقابات العمال المنظمة في مصر القاهرة . » وقد جاء في الكتاب ما يلي :

... « هذا خطأ لأن البولشفية لا تأتي عن نشر الدعوة بل تنمو وتنتشر بقوة الضغط ، واي ضغط اشد من الضغط الحالي لعمال مصر ، نريد ان نرى في اي بلد من بلدان العالم يستهان بحياة العمال وحقوقهم كما في مصر ، فاذا اردتم ابعاد شبح البلشفية التي تخشونها فعليكم اقناع اصحاب رؤوس المال بان يخفضوا قليلاً من غطرستهم وكبريائهم واطماعهم الاشعبية الممقوتة ويعترفوا بحقوق العامل في الحياة ، واقنعوا ايضاً القوة الحاكمة بان تشمر عن ساعد العمل والجد فتتداخل مداخلة فعلية لاعطاء كل ذي حق حقه كاملاً غير منقوص ... »

واخذت الجريدة ابتداء من العدد : ٥١ تاريخ ١٩٢٣/٤/١١

تنشر مقـالات للانسة م . سمعان او مرغريت سمعـان (زوجة الاستاذ فؤاد رزق ، نقيب المحامين في لبنان) كانت اولاها مقالة بعنوان « دمعة الشيخ وابتسامة الفتاة » تقول فيها على لسان الفتاة :

تعال ايها الشيخ الفتى نعمل لنا ولغيرنا ولبلادنا ، ففي خدمة الاهل والبلدان خدمة الله والاكتفاء بالنفس .

« اعطني البلاغة والفصـاحة لأسير في طريق النور . وان اظلمت امامك السماء فاستنر من صبوتي . »

وقد حرضت هذه المقالة الاستاذ يزبك فعاود الكتابة ليشرح اراءه الاشتراكية من جديد في مقال بعنوان : « دمعة الفتـاة وابتسامة الشيخ » نشر في العدد ٥٤ تاريخ ٢١ – ٤ – ١٩٢٣ ، قال فيه : « ... قالت ان الحياة الشقية لها لا تؤلمها ، وارتداءها الاسمال البالية الرثة لا يهمها ، وعيشها غنية او فقيرة لا يؤثر بها . وسيان لديها سكناها في قصر كبير او كوخ حقير .

« لكن فؤادها يتفطر اكتئاباً عندما ترى طفلاً مريضاً وليس لأمه الارملة فلس لتطبيبه ، او ان يعترض المال على هوى قلبين متحابين فيجندل العـاشق ويأسر الملاك ويرفرف الألم الروحي بجناحيه على الشهيدين . او ان ترى نابغة ينطفيء سراج عبقريته ويرمس في الاديم جوعـاً بينما كلاب الاغنياء في تخمة . او ان يقف الفقير « البريء » امام القضاء مجرماً مهـاناً ويخرج الغني « المجرم » من يد القضاء بريئاً مكرماً . او ان يبيع بشر املاكاً في السماء وتظل اوهامهم قوة هائلة في القبض على ارادة الشعب .

او ان تعلن الحروب دفاعاً عن اموال الرأسماليين المحتكرين ، فترمل النساء ويقتل الشبان وتيتم الاطفال وتدمر المنازل وتحرق الحقول باسم الحرية والاوطان .

« قالت :

« ان الوطنية لهي توحش في العالم الذي عرفوه متمدناً ! أو لم يكن البريطاني اخا المصري ، والالماني اخا الفرنسوي ، واليوناني اخا التركي ، والاميركي اخا الفلبيني ، قبل ان يتنازعوا الارض « الشاسعة » « الواسعة » « الرحبة » ويؤلفوا اوطانهم .

« اولا يتحول القمح الاوسترالي الى مادة غذائية في جسم المكسيكي ؟ اولا يوقي القطن الهندي جسم الايطالي قساوة البرد ؟ اولا توقظ شاعرية « دي موسه » عاطفة اللبناني ? اولا يثير حب قيس او عروة بن حزام شجون المسكوبي .

« فلماذا يتحارب هؤلاء وعلام يتقاتلون !

« لماذا لا يكون للارملة مال تداوي به وحيدها ، ولماذا لا يساوي « عدل » القضاء بين الغني والفقير ، ولماذا يشقى النوابغ وتسعد كلاب الاغنياء ؟

« قالت هذا واستسلمت للبكاء ...

« يا لدمعة الفتاة يا بني

« ... وتلك الدموع التي ذرفتها انما هي تمهيد لليقظة الفكرية فيها . وذلك الكره الشديد للحروب والاستعباد ومسببيها (من ملوك وحكام ورأسماليين) ذلك الكره انما هو مثال حي للروح الاشتراكية العالية التي ستقود العالم الى السعادة والهناء .

« وبينما هي تدمع كنت انا ابتسم يا بني !

« كنت ابتسم لفجر الحياة الحرة ، كنت ابتسم لصباح العيش السعيد ، كنت ابتسم لعصاب الجهل ينزع عن العيون الساحرة . وابتسم لدموع الفهم الثائرة على الخمول ...

الشبح الباكي

في الكوخ الاحمر عن مدينة الاغنياء

في ١٦ – ٤ – ١٩٢٣ للانترناسيونال الثالث »

تعطينا دراسة هذا المقال فكرة جديدة اضافها الاستاذ يزبك الى مادته الاشتراكية هي فكرة الحروب وشجبها ومهاجمة مسببيها من الملوك والحكام والرأسماليين وفكرة الوطنية التي اعتبرها رجعية بالية وتوحشية .

وما ان ازف اول ايار ١٩٢٣ حتى كانت الحركة قد اصبحت على درجة عالية من الوضوح تميزت بكثرة المقالات المرسلة للجريدة وتنوعها . وبهذه المناسبة عطل الصحافي التائه وعماله عملهم في الجريدة « وهي اول مرة يحتفل عمال في سوريا ولبنان بهذا اليوم . » (عدد : ٥٧ ، تاريخ ٢ ايار ١٩٢٣) . وللمرة الأولى ايضاً نشرت قصيدة للشاعر الياس ابي شبكة بهذه المناسبة مؤلفة من ٢٥ بيتاً بعنوان : « انشودة العمال في شهر ايار » (ع : ٥٧) وفيها يقول :

اقبل الظبي على ذاك الفتى مسترقاً فيه قلب الوجلِ

واراه منجلاً في يده قائلاً سر الهوى في المنجلِ

ان ترم تقرن بالمجد الهوى فتجنب عـــاديات الكسل
هوذا المنجـل فاطلب عملاً انمــا المنجل رمز العمل
شارك العمال في مهنتهـم واجتهد في كل امر تصل
انمـا العمال اركان اذا هبطت يهبط مجـد الدولِ
ان ترم تهوى غزالاً فاقترن قبل هذا بعروسِ العملِ

ولعل هذه القصيدة من باكورات الادب الشيوعي في سورية ولبنان .

غير ان افضل ما نشر بهذه المناسبة هو الدراسة التي قدمهـا الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك بعنوان : « الاشتراكية في لبنان ، ناسبة عيد العمال في اول ايار » ونشرت في العدد : ٥٨ بتاريخ ١٩٢٣/٥/٥ .ففي هذه الدراسة يقدم الاستاذ يزبك لا بحثاً نظرياً في الاشتراكية وتاريخها ومقوماتها فقط ، بل يقـــدم نفسه ايضاً والعوامل التي دفعته لاعتناق المذهب الاشتراكي ، ولهـذا القول ما له من الاهمية التاريخية :

تمهيد :

« انا اشتراكي صميم .

« نشأت ـ ولا افتخار ـ بين رخاء العيش في بيت كريم . فشئت ان آخذ عن ذويّ حسن ادابهم ، تاركـــاً لهم اموالهم وارزاقهم واعتقاداتهم الاجتماعيـــة والدينية . وتفردت بكسب عيشي ، واتباع مبادىء ان لم يكن جلهـــا « سماوياً » فكلها انسانية ...

« ومع هذا لن ادعو احداً لاعتناقها .

« نظرت الى العالم بعين مجردة منزهة فرأيته معتركاً هائلاً بين الغني والفقير ، والقوي والضعيف ـ فراعني ان يظلم الاول الثاني وبين الناس من يدّعون العواطف الحماسة الشريفة والاخلاق الطيبة النبيلة ـ فتطوعت للخدمة اينما وجدت سبيلاً اليها غير مكترث بالصدمات والمحن .

« ارجو بعد هذا التمهيد ـ ان لا يتهمني القاريء باني ادافع عن الاشتراكية مدفوعاً بتأثير البيئة والمحيط ـ او بعامل البؤس والشقاء . لا بل اني ادافع عن هذا المذهب السامي بضمير منزه وقلب حر . جل ذنبه انه يحب البؤس وابناء البؤس ومن لاذ بمرارة البؤس .

قلت في عباراتي الأولى اني اشتراكي صميم . اجل اني كذلك ! بل انا ثائر متمرد متطرف ولكن على الظلم والفوضى والخرافات .

وان هذا الجبار الذي اشعر بنبضاته الآن بين جنبي ـ لم يختلج لغير الشفقة والرأفة والحنان ولن يختلج لغير نصرة الحق وخدمته .

الشبح الباكي

عن الكوخ الاحمر ومدينة الاغنياء .
في ٢ ايار ١٩٢٣ للانترناسيونال الثالث

٨ الاشتراكية :

« كلمة ارتجّ لها العالم من ادناه الى اقصاه وانقسم الى قسمين : قسم يحاربها وهو فريق الرأسماليين والمحتكرين وبعض زعماء

القوم ، وقسم يؤيدها ويذود عنها وهو فريق العمال والاحرار .

« لقد عرفت مبادىء الاشتراكية منذ قرون بعيدة جداً ثم جاءت تؤيدها كتب الاديان ، فبث الانجيل دعوتها وايد القرآن حجتها . ويقال ان اول ما قال الخالق للرفيق جدنا آدم كلمة صارت دستور الاشتراكيين وقبلة مراميهم وهي : « بعرق جبينك تأكل خبزك . » وهم يسعون الآن الى تحقيق هذه الآية بأن يعمل الجميع دون استثناء في الطبقات ، وان يكون اجر كل عامل بقدر نتيجة عمله . اي بقدر ما يثمر العمل من الفائدة للجميع .

« ولئن تباينت مذاهب ارباب الاشتراكية وتباعدت آراؤهم في كيفية الوصول الي تنفيذ معتقدهم فهم متفقون اصلاً على تحقيق امنيتهم الجميلة المقدسة اي تخفيف آلام الانسانية .

« ترمي الاشتراكية الآن الى ابدال النظام الفردي بنظام اشتراكي يساوي بين حصص اثمار العمل كما يتساوى العمال في عملهم لانتاج ذلك الثمر . او ببيان اوضح مثلاً : ان القاطرة (السكة الحديدية) لم تسر من بيروت الى زحلة الا لأن النجار والحداد والفاعل والبناء والدهان والمهندس وصاحب المال « اشتركوا » في تكوين هذه القاطرة وبذل كل منهم عملاً او ما يساوي عملاً في سبيل ايجادها . فهل نال المنتوج منهم (اي القاطرة) اشتراك تعبهم ? او ان بعضاً نال قسماً زهيداً ، وبعضاً لم ينل شيئاً ?

« الجواب : هو ان العامل المسكين الذي قضى سنوات في

الجد والعمل والشقاء والتعب تحت حرارة الشمس وعواصف الشتاء وبرده القارص ، نال اجرة وقت عمله ، وعند نهايته منه مضى في سبيله ، واخذ صاحب المال - بكل راحة بال - يستثمر وحده (وحده ! وحده !) نتيجة عمل ذلك العامل الشقي .

« ولعل معترض يقول : ان هؤلاء العمال لولا وجود المال لما تمكنوا من ايجاد القاطرة . فان العمل وحده لا يكفي للقيام بالمشاريع .

فنجيب ، (وان يكن الاعتراض مردوداً علمياً) وان المال وحده لا يقوم ايضاً بالمشاريع ان لم « يشترك » معه عمل فهل يجوز ان يستثمر المال نتيجة العمل مع انه لم يتمكن من انتاج شيء لولا « اشتراكه » معه ?

« اذاً ، ارجو ان تحفظ جيداً هذه العبارة : « الاشتراك في العمل » .

« ان المال - بنظر بعض الاقتصاديين - هو ثالث عوامل الانتاج . (واول هذه العوامل الثلاثة هو الانسان وثانيها الطبيعة) وفي عرف البعض الآخر لا يدخل المال في عدادعوامل الانتاج بل يعد « منتوجاً مشتقاً » فهل يصح ان المنتوج يحرم علته من ثمر انتاجها ?

« اجل يصح هذا !

« يصح هذا الظلم العاتي ما دام القوم سائرين على النظام الفردي الذي يجيز للغني ان يأكل ثمرة تعب الفقير ، وان يعيش القوي عالة على الضعيف ، وان يحتكر العالم افراد معدودون

فيعلنون الحروب ويسوقون الملايين الى الذبح كالاغنام ويكيفون سياسات الوزارات ويقلبون الدول على اعقابها والعامل كالنذل الجبان امامهم لا يجسر على ان ينظر الى موطيء اقدامهم .

« قد يستغرب بعضهم هذا القول، لكنهم لو فكروا قليلاً او تدبروا اقوال كبار فلاسفة التاريخ في الحرب العالمية ، يعرفوا ان مسببي اشتعال اوروبا وقسم من القارات الباقية بنار الحرب انما هم محتكرو الحبوب وأصحاب المناجم والمعادن وأرباب معامل المدافع والمؤن الحربية ، وان غليوم وزملاءه ذوي التيجان والسياسة بريئون من اسبابها ، لكنهم استسلموا لأفكار اولئك الانذال فعذبونا وعذبوا العالم ... »

(ويتابع عن كروب وستانيس وغيرهم من اقطاب الصناعة الالمانية الذين يتحكمون بمئات الالوف والعمال)

« اعود الى الاشتراكية ومبادئها ، فقد يظنها بعضهم انها فوضى وظلم تدك اصحاب المال وتميت النبوغ وتقتل التفوق ...

« لا ، ان الاشتراكية لا تقاتل أصحاب المال ولكنها تريد ان تقتل الاستقطاب المالي والعقاري ، اي الاحتكار – تريد ان يكون العالم كله غنياً ما زال هذا الغنى منتوجاً من الطبيعة الغنية التي هي ام الكل . تريد ان ينال العامل اجره بكل استحقاق ، تريد ان يقف عالي الجبهة معتبراً في كل مواقفه ، تريد ان يكون في الحكومة نواب عن العمال يدافعون عن حقوقهم ويؤيدون مطاليبهم عند سن القوانين ، وتريد الاشتراكية ان

لا تكون الضرائب على العمال وحدهم ، وأن ينال هؤلاء قسطهم من الحكومة ، تريد ان تكون المدارس مجانية للجميع ، تريد ان تميت كل الشركات الاحتكارية ، وان تكون المشاريع العمومية في يد الحكومة ليكون ريعها للأمة التي تؤلف تلك الحكومة . أجل ، تريد هذه المعاني الحقة وسأنشر في اعداد مقبلة كيفية الوصول اليها ، واشرح نظامها ومقارنته بالنظام الفردي و كيف ان العالم سائر بنفسه الى الاشتراكية .

« الاشتراكية في لبنان :

أما في لبنان ... فهل تعيش الاشتراكية عيشها الآن في بريطانيا وفرنسا والمانيا ؟

« لا مشاحة في ان للتربية تأثيراً عظيماً على مجرى حياة الشعوب . والعادة التي تألفها امة من الامم – وان تكن عادة غير محمودة – لمن الصعب ابدالها سريعاً بعادة محمودة ، مهما كان في الأولى من الضرر وفي الثانية من النفع ، غير ان الايام الطويلة تكفل النجاح لكل مضحٍ وثابت في مذهبه مهما بعد رأيه عن مألوف محيطه وتباين مذهبه عن مذهب ذويه . وهذا ما نقوله في الاشتراكية اللبنانية فان الاشتراكية انما هي الديموقراطية بعينها . لكنها ديموقراطية اقتصادية ، ومن الصعب تنفيذ كل مبادئها في بلد لم يتشرب ويختمر بالتربية الديموقراطية الحقيقية . فهل في لبنان هذه التربية ؟

« نحن لا نطلب ان تعيش الاشتراكية الآن بكل اطرافها

ومراميها في لبنان . لكننا نريد ان نبث مبادئها وتعاليمهـــا ، ونبدأ ، عند سنوح الفرص ، بتنفيذ ما تقدر معدتنا على هضمه ...

« الاشتراكية والعمال :

« ان العمال – ولا ريب – هم اكبر مروجي الدعـــوة الاشتراكية وفي مقدمة انصارها ، لأنهم تحققوا صدق خدمتها لمصالحهم . وفي اكثر المجالس النيابية في دول العالم يكون نواب العمال في صفوف الاشتراكيين (الا بعضهم) فهل نال عمالنـــا (ولا اقول اشتراكيونا) نائباً عنهم في المجلس النيابي .

« ان من المستحيل ان نطلب لهم هذا وهم حتى الآن لم يثبتوا وجودهم ويفهموا العالم انهم احياء . أين هي نقابات العمال ؟ اين هي جمعياتهم ؟ اين هي صناديق اعانتهم ؟ اين هي مآوي عجزائهم؟ اين هي مدارسهم ؟ اين هي مكتباتهم ؟ واين هم العمال انفسهم ؟

ايها الرفاق الاحباب

« اني لا ادعوكم الآن للاشتراكية لأن فكرتها لم تنضج في بلادنا حتى الآن ، لأن مواطنينا يطلبون حقوقهم ولا يقومون بواجباتهم ، لأن مواطنينا تعودوا الخمول والكسل والاستعباد ، لأن مواطنينا لا يريدون لنا الحياة حرة شريفة – ولهـــذا لا ادعوكم الان للاشتراكية .

« ولكن، الا تريدون ان تكونوا انتم سعداء ؟

« الا تريدون ان تنفضوا عنكم غبار الاستعباد ؟

« الا تودون ان يكون لكم نصيبكم تحت الشمس والقمر ؟ الا تحبون راحة عيالكم وابنائكم . فلمَ انتم نائمون ؟

« ناشدتكم الله ايها الرفاق ! ان الاتحاد لخير وسيلة لرفع مناركم . ان اتحادكم — وان ضعفاء — يولد قوة جبارة تحييكم !

« يميناً ايها الرفاق ، لو كان لكم روح الاجداد الامجاد لما وصلت البلاد الى حالتها الحاضرة . ان الماضي اللامع ليقف حائراً امام حاضركم المظلم ومستقبلكم المجهول . ان امنية البلاد ملقية على اتحادكم . ان سواعدكم المفتولة هي حجر الزاوية في استقلال الوطن . فلا تظلموا حياة الوطن يا احباب الوطن . والى الاتحاد ادعوكم يا عمال لبنان الحبيب .

الشبح الباكي

ان ابرز ما في هذه المقالة ، هو تحديد مطالب واضحة للعمل الاشتراكي ، وهي اول مرة توضع فيها مطالب تطبيقية بمثل هذه الصراحة . ونحن سوف نرى فيما بعد ، ان الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، عندما بلغ درجة عالية من القوة والشدة لم يجرؤ على اعلان مثل هذه المطالب الاشتراكية ، بل اكتفى ببعض منها فقط .

وفي شهر حزيران ١٩٢٣ نقلت جريدة الصحافي التائه خبراً عن الاهرام المصرية يشير الى ظهور حركة بين الشبان السوريين واللبنانيين في الاسكندرية ترمي الى انشاء جمعية اشتراكية تستمد مبادئها الاساسية من الاشتراكية الدولية الثالثة في روسيا . ويقول الصحافي التائه انه لا يعلم شيئاً عنها . (ع : ٦٧ ، تاريخ ٩ - ٦ - ٢٣ .)

وتابعت الحركة الاشتراكية دعوتها بشتى الطرق ومنها

الشعر على لسان الياس ابي شبكة الذي نشر قصيدة بعنوان «الشعر الاشتراكي» ومهداة الى «الشبح الباكي» صاحب الكوخ الاحمر » في العدد : ٨٥ تاريخ ١٥ ـ ٨ ـ ٢٣ قال فيها :

«هذا الوجود مشانق نصبت لنا والظلم في ساحاتها السفاح
اوما ترى الفلاح بعد جهاده يجد الشقاء لأنــــه فلاح
فكأن اكرام الفقير محرم وكأن اكرام الغني مباح
هذي العروش جماجم مرصوفة في جوفها تتمرد الارواح . »

الصحافي التائه والعمال

قالت جريدة الصحافي التائه عن نفسها انها جريدة العمال والبؤساء ، وحققت بالفعل هذا القول فكانت الجريدة الوحيدة المدافعة عن حقوق العمال والساعية لجمعهم في نقابات . فقد تبنت معظم قضاياهم ، سواء في البقاع او في بيروت وطالبت بتنظيمهم ودخولهم معترك الحياة السياسيـــة على غرار حزب العمال في انكلترا، واحتضنت الحركات النقابية ونشرت لها بياناتها وتفاصيل اجتماعاتها وهاجمت خصومها ومستغليها .

ففي العدد : ١٦ تاريخ ٢٢ ـ ١١ ـ ٢٢ مقـــال طويل بعنوان : حزب العمال ، اين هو » يهاجم فيه الاستاذ الرياشي بعض اثرياء بيروت الذين الفوا حزباً باسم حزب العمال محاولين بذلك استغلال اسم العمال واصواتهم الانتخابية . وفي هذا المقال يقول :

« لم نعرف حتى الساعة شيئاً عن هذا الحزب الذي احتكر بيروت مقاماً واحتكره بعض الافاضل - غير مـــا طالعناه في الجرائـــد عن انتخاب هيئته العاملة والمشكّلة وأيم الحق من كرام وافاضل .

« وهكذا فاننا في اواخر الصيف الماضي قرأنا في الجرائد خبر انتخاب هيئة للحزب ولم نسمع بعد ذاك عنه شيئاً .

« وقابلنا زعماء نقابات عديدة للعمال في هذه المنطقة وعرفنا منهم انهم مثلنا لا يعرفون شيئاً عن حزب العمال العام في بيروت. فكيف ولماذا ???

« هذه مشكلة نطلب من الرفاق تفصيلاً عنها ...

« اما هناك حزب للعمال يمثل عمالاً ! فاين العمال ونقاباتهم ?

« واما هناك حزب للعمال لا يمثل عمـــالاً فلماذا ولأي سبب تشكل ?

« نحن نضن بسمعة رجال هيئة هذا الحزب ونؤكد ان غايتهم يجب ان تكون شريفـة ولكننا مـا عرفنا قبل اليوم حزباً يتشكل لفئة من الناس ومعظم افراد هذه الفئة لا يعرفون عنه شيئاً .

« ولا نعلم اذا كان في بيروت من مريدي هذا الحزب عدد كافٍ من العمال يشكل حزباً لا يكون لهم في هيئته ممثل ومع هذا يدعو نفسه حزب العمال العام .

« وفي هيئة الحزب المؤلفة من عشرين عضواً او اكثر رأينا النائب والصحافي والخطيب والاقتصادي والرأسمالي والتاجر ولم

نَ عاملًا واحداً يمثل نقابة من نقابات العمال او فئة منهم اذ لم يكن هناك من نقابات ... »

وتابع في العدد : ٣٠ تاريخ ٢٣/١/١٧ هجومه على هؤلاء الاشخاص بمقال عنوانه « زعماء العمال في بيروت ، اشتراكيون بحذاء أحمر » وفيه يقول :

« ولم تعد تعتريني الدهشة ساعة اسمع الرأسماليين يدّعون الاشتراكية والعطف على العمال طالما من هؤلاء من وضع بين ايديهم مقادير حياته ولا اعجب لادعاء الوجهاء وأصحاب الاملاك بزعامة العمال طالما من هؤلاء من يعترف لهم بهذه الزعامة .

« وعندنا كل العجائب فلماذا لا يكون هنا عجيبة تطبيق صالح الرأسمالي مع صالح العامل على غير المعتاد في العالم كله لان المعروف بديهياً ان العامل لا يكون الا اشتراكياً والرأسمالي لا يكون اشتراكياً .

« ولما قرأت مؤخراً كلمات عن حزب العمال في بيروت ورؤسائه ، قلت لا بد ان لهم بعض المباديء في الانترناسيونال الثالث فرأيت بعد حين ان غايتهم الوصول الى غاية عن طريق العامل دون علم منه .

« وهل يمكن لأحد في سوريا ولبنان ان يتكلم عن العامل ولا نقابات منظمة له تعطي الحق لشخص ما بالتكلم عنها والمتاجرة باسمها كما يفعل الكثيرون في بيروت ...

« وأما من ادعى الاشتراكية وزعامة العمال في بيروت فانه يمثل مظاهر السيادة والفخفخة ليتاجر بهم في عقر دارهم وهم

غافلون ...

« فدعوا العمال ايهـــا الاسياد في فقرهم وبؤسهم ودعوا الاشتراكية لأصحابها واهتموا بأموالكم ومتاجركم لانه ما احب الفقير الا الفقير وما احب العامل الا العامل اخوه فقط ».

وبعد فترة قليلة انتقـــل من طور الهجوم السلبي الى طور التحديد الايجابي لمطالب العمال فقال في مقال بعنوان : « حزب العمال الجديد » ما يلي : (عدد : ٣٣ ، تاريخ : ١٩٢٣/١/٢٧).

« ... ان العمال يريدون حقوقاً لا اسعافاً وان لهم بيانـاً تسعى نقاباتهم المنظمة سعياً حثيثاً لتحقيقه وهو ينحصر في ثلاث نقـــاط رئيسية : ١ً ــ الاسبوع الانكليزي . ٢ً ــ الحصة في الانتاج . ٣ً ــ التقاعد والتضمين .

« وكل ما يخرج عن هذه النقاط الاساسية يصبح مبتـذلاً لا اهمية له ، ولا شأن للعمال به .

« وقضيتهم بسيطة جداً خارجة عن كل مشكلة ، ويجب ان تبقى على بساطتها ليكون لها نصيب من النجاح .

« فلا هي مندمجة بالامور السياسية ، وليس لها بيـان مالي وتجاري ، ولا تعمل داخليـــاً للسيطرة على الانتخابات . ولا للمداخلة في امور الادارة ، وليس لها احتكاك بالدين ورجاله ، وهي بعيدة عن كل ما يخرج عن تحسين حالة العامل من الوجهـــة الاجتماعية والاقتصادية فقط ...

« واذا انسحب اعضاء من حزب العمال في بيروت وانقلـب ذلك الحزب على بعضه يكون هذا نتيجة طبيعية لمسراه ومبـدأ

انشائه وداخلية اعماله التي لا تنطبق بوجه من الوجوه مع مصلحة العمال الاساسية التي ، كما قلنا اعلاه ، تنحصر في نقاط ثلاث — الاسبوع الانكليزي — الحصة في الانتاج — التقاعد والتضمين ».

ويعتبر هذا التحديد لمطالب العمال اول عملية عمالية صحيحة في سورية ولبنان ، وأول اساس لبناء الحركة العمالية بناءً مستقلاً عن كل ما يمكن ان يشوهها. اما الاسبوع الانكليزي الذي يطالب به فهو العمل ثماني ساعات في اليوم مع تعطيل السبت بعد الظهر.

وابتدأ الصحافي التائه ينظم نفسه فألف نقابة للعاملين في الجريدة تضم الاستاذ الرياشي وعماله جميعاً (عدد : ٤٣ ، تاريخ ٧ / ٣ / ١٩٢٣).

وما لبثت دعوة الصحافي التائه ان لاقت استجابة في عمال زحلة « فقد قام رشيد سويد الذي علمته السنوات التي قضاها في المهجر الأميركي فضيلة العمل وراء خير الغير ... وابتدأ اولاً بتسجيل اسماء العمال بنظام معروف ، كل مهنة لوحدها ، والسعو وراء تشكيل نقابات منها تضع دستورها لتعرضه على الحكومة ... واني على ثقة من ان حزب العمال الذي يشكل الآن في زحلة ، سيعطي قريباً امثولات حقة لعمال بقية المدن اللبنانية ، واخصها في المحافظة على بيانه الذي اساسه : الاسبوع الانكليزي والربح على قدر الانتاج والتكاتف المادي والادبي بين طبقات العمال في سوريا ولبنان ، ونبذ كل متاجر باسم العمال ... » (ع : ٤٧ ، تاريخ : ٢١ / ٣ / ١٩٢٣).

وما لبث السيد رشيد سويد ان وفق في مشروعه فاجتمع

فريق من العمال يزيد عددهم على الثلاثين عاملاً في بيت السيد سويد وانتخبوه رئيساً للجلسة كما الفوا لجنة موقتة من ستة اعضاء لتضع القانون الاساسي لحزب العمال وقد اقسم الجميع يمين المحافظة على مباديء الحزب . (ع : ٥٢ ، تاريخ ١٤/٤/١٩٢٣) .

وقد تابع هذا الحزب اجتماعاته وقدم الى الحكومة طلباً للترخيص فناله باسم : « نقابة عمال زحلة » بتاريخ ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٢٣ بتوقيع حاكم لبنان الكبير بالوكالة السيد اوبوا ومدير الداخلية الشيخ محمد الجسر. (ع : ٦٩، تاريخ ١٦/٦/٢٣).

وبالاضافة الى الدعوة لتنظيم العمال وتثقيفهم تبنت الجريدة مشاكل العمال وخلافاتهم مع اصحاب العمل سواء في البقاع او في بيروت ، كما اثارت مشكلة اجور السكن فدافعت عن المستأجرين وظلم اصحاب الاملاك لهم ، وعن حرية الصحافة بوجه خاص .

الصحافي التائه وروسيا

ومن المفيد ان نعرض بسرعة لموقف الصحافي التائه من روسيا ، نظراً لأهمية مواقف الحزب الشيوعي ، في المستقبل ، من هذه الدولة وتبعيته الكلية لها . ويمتاز موقف الاستاذ الرياشي بميزتين : الأولى هي تشديده على ابراز اخبار روسيا وتشويق القاريء لمتابعتها . والثانية الهجوم على روسيا السوفياتية وقادتها وحتى على المباديء الماركسية عندما يجد ان هناك موضوعاً صحفياً يمكن ابرازه او عندما يرى هذه المباديء متناقضة مع

« الاشتراكية المعتدلة » والدين .

فمنذ العدد الاول من الجريدة نرى عدة اخبار تتعلق بالاتحاد السوفياتي وابرزها الخبر التالي المنشور تحت عنوان : « امرأة ولا كالرجال » حيث يقول : « تحكم موسكو اليوم ، عاصمة روسيا وقاعدة البلشفيكية الباعثة للعالم نور الاشتراكية التامة فتاة هذا رسمها (ويلي ذلك رسم فتاة) واسمها راتسكايا ... » ثم يتابع مطرياً محاسنها ومفاتنها .

ولكنه في عدد آخر ، وبمناسبة ما اشيع عن مرض لينين ، ينشر خبراً طويلا عن كاتمة اسراره المدعوة فوتيافا وعما زعمه عن وقوع لينين في غرامها بالاضافة الى اشياء اخرى تحط من شأن القائد الشيوعي . (ع : ٥١ ، تاريخ ١٩٢٣/٤/١١) .

وعندما زار النائب الفرنسي السيد ادوار هريو ، الاتحاد السوفياتي عام ١٩٢٢ تابع الصحافي التائه اخبار الرحلة والاستقبالات التي اجريت للسيد هريو كما نشر مشاهدات هذا الاخير كاملة في عدة اعداد من الجريدة . ولكن الصحافي التائه يستنتج منها : « أن الحالة هنالك ابتدأت ان تتميز واخذت حكومة لينين ترجع لمباديء الاشتراكية المعتدلة نابذة مباديء كارل ماركس التي لا سبيل لوضعها موضع الاجراء وهي خيالية لا تطبق . » (ع : ١٤ ، تاريخ ١٩٢٢/١١/١٥) .

ورغم كل ذلك يبقى العطف على الشيوعية والاتحاد السوفياتي بارزاً في الجريدة فيورد مثلًا البيان الذي نشره البلاشفة ووجهوه للاتراك طالبين من دول الحلفاء الجلاء عن تركيا ، كما نشر اليمين

التي ادخلها تروتسكي على الجيش الاحمر والزم كل جنـــدي فيه بادائها ، وكلها ولاء للشيوعية والثورة العالمية (ع : ٣٩ ، تاريخ ١٩٢٣/٢/٢١) .

ونحن سوف نرى في مستقبل قريب هـذه الافكار المستقلة تزول عند الشيوعيين ويمحي من منشوراتهم واقوالهم كل ما فيه اي نقـد او تخطئة للاتحاد السوفياتي او اي انتقاص من حالته واوضـــاعه .

خـــاتمة

ومهما يكن من امر فان جريدة الصحافي التائه قـد ادت مهمة اساسية كبرى في نشوء الحركة الشيوعية عندما استقطبت الشباب المثقف المتألم ودفعته للعمل في الاتجاه الشيوعي واعطته الوسيلة التي يعبر بها عن ارائه ويتوجه بواسطتها الى الشعب .

ورغم ان الحركة كانت لا تزال في خريف ١٩٢٣ مبعثرة غير منتظمـــة ، الا ان هذا العام الاول من حياتها الفكرية اكسبها وضوحاً لم يكن لها من قبل وجعل مفاهيمهـــا تتمايز وكلامهـا يزداد قوة وجرأة ، كما ابعدها عن المجال الرومانطيقي الغامض المغرق في البكاء والنحيب ، واطلقها في جو العمل والتثقيف الشعبي ، جو الدراسة والشرح ، ذلك الجو الذي كان لا بد له من ان يصل بعد وقت قريب الى نتائج عملية تطبيقية .

الفصل الثاني

تنظيم الحزب الشيوعي

كان الكتاب الاشتراكيون قد وجدوا خلال عام ١٩٢٤ طريقاً لهم الى بعض الصحف البيروتية فكتب الاستاذ يوسف يزبك في المعرض التي كان يصدرها المرحوم ميشال زكور ، وفي الدبور التي كان يصدرها المرحوم يوسف مكرزل ، وغيرهما . غير ان كتاباتهم في صحف بيروت لم تكن تخرج عن الخط الذي ابتدأ في الصحافي التائه .

وفي هذه الاثناء كانت الحكومة الانكليزية قد طردت فؤاد الشمالي من مصر بتهمة القيام بنشاط بلشفيكي ، فجاء الى لبنان واستقر في بكفيا وابتدأ يعمل لتأليف نقابة لعمال معامل التبغ التي تكثر في البلدة نفسها والمنطقة المجاورة بوجه عام . ونجح الشمالي في تأليف هذه النقابة خلال ذلك العام .

وتوفي اناتول فرانس الكاتب الفرنسي الكبير في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ . فأخذ الادباء في لبنان يكتبون عنه المقالات الطويلة في شتى النواحي ، الادبية والاجتماعية .

ونشرت مجلة «المعرض» في عددها رقم ٣٤٤ (السنة الرابعة) تاريخ الاحد في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٤ القطعة التالية :

« ما نعت فرنسا الكاتب الانساني العظيم ، والرجل البلشفيكي الحقيقي ، اناتول فرانس ، حتى تأثر العالم بأسره لموت هذا « الانسان » الذي جسم مبادئه السامية في شخصه وفي حياته وفي اعماله .

« وكان للنعي صداه في لبنان فقام كتابه الاشتراكيون يودعون الراحل الكبير : »

ونشر بعد هذه المقدمة مقالين في تأبين اناتول فرانس، احدهما للاستاذ راجي الراعي ، والثاني للاستاذ يوسف يزبك .

وقد جاء في مقال الاستاذ يزبك القول التالي :

« مات صديق الفلاحين والعمال ،

مات صديق المظلومين والفقراء .

مات صديق الحرية ورسولها . »

حزب الشعب اللبناني :

وفي هذه الاثناء كان الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك يعمل سكرتيراً ترجماناً في دائرة المهاجرة في مرفأ بيروت ، وفي أحد

أيام شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٤ دخل عليه هناك صحفي عرفه على نفسه بأنه «جوزيف برغر» (J. Berger) وهو يهودي من فلسطين وأخذ يسأله عن الحركة الادبية في لبنان ، وعن تأثير اناتول فرانس في ادباء البلد ، ثم انتقل الى السؤال عن التيارات اليسارية في سورية ولبنان (كان الجميع يعرفون سورية ولبنان في ذلك الوقت باسم سورية ويدعى سكان البلدين سوريين) .

واثناء الحديث اخرج برغر من محفظة اوراقه عدد جريدة « المعرض » الذي كان الاستاذ يزبك قد كتب فيه عن اناتول فرانس ، وقد اشر على تلك المقالة بالقلم الأحمر ، خاصة حول الكلمات التي تقول عن اناتول فرانس انه « صديق الفلاحين والعمال » ، والاسطر التالية .

وسأل برغر عن معنى هذه الكلمات ، لأنها ذات مدلول خاص فأجابه الاستاذ يزبك انه ذو نزعة اشتراكية ، فسأله عما اذا كان هناك اشتراكيون غيره فأخبره بوجود عدد من الكتاب الاشتراكيين غير انه لا توجد رابطة توحد بينهم . فسأل برغر عن مدى تقبل العمال للفكرة الاشتراكية وعن مدى استعدادهم لتنظيم صفوفهم ، فأكد له يزبك وجود هذا التقبل وهذا الاستعداد كما اخبره عن نقابة عمال التبغ التي اسسها فؤاد الشمالي في بكفيا .

وعندئذ اخبر برغر الاستاذ يوسف يزبك انه بلشفيكي وانه مندوب الحزب البلشفيكي في فلسطين ومهمته ان يؤسس فرعاً للحزب في لبنان . وهنا لا بد لنا من الاشارة الى ان الحزب

البلشفيكي في فلسطين كان منظماً منذ عدة سنوات ولكن عضويته كانت تقتصر على اليهود فقط ، وان الفلسطينيين العرب القلائل الذين انضموا اليه كانوا غير موثوقين من الاكثرية اليهودية ولا يؤتمنون على اسرار الحزب ومخططاته السرية .

وبعد ذلك طلب برغر ان يتعرف على فؤاد الشمالي ، وكان الشمالي يتصل اتصالاً دائماً بالاستاذ يزبك فينزل الى بيروت عدة مرات في الاسبوع ويقضي وقته معه . وهكذا تعرف برغر على فؤاد الشمالي واتفق الثلاثة على الصعود الى بكفيا للتعرف على بقية اعضاء الحركة النقابية فيها . وكان الاستاذ يزبك قد اخبر بدوره فؤاد الشمالي عن مهمة برغر وانه قادم لتأسيس فرع للحزب البلشفيكي الفلسطيني في لبنان .

واذا رجعنا الى ذلك الظرف ، ودرسنا الوضع السياسي في البلاد ، والتيار المعادي للبلشفية الذي كان سائداً فيها ، والاعتقاد الراسخ انها تمثل الهدم والقتل والفوضى، وحذر سلطات الانتداب من كل حركة سياسية في البلاد ، عرفنا مبلغ الحرص والتكتم في هذه الاعمال الأولى ، وفهمنا سبب تستر اليهودي برغر بصفة صحفية في محاولته التنظيمية هذه .

وعندما صعد برغر ويزبك والشمالي الى بكفيا امضوا مع بقية الرفاق سهرة ممتعة شربوا فيها الانخاب وغنوا الاغاني الشعبية. وفي تلك السهرة ، أُنشد نشيد الانترناسيونال للمرة الأولى في سورية ولبنان ، انشده اليهودي الشيوعي جوزيف برغر في بكفيا وعلمه للحاضرين فرافقوه في انشاده . وفي تلك السهرة

طلب الرفاق من الاستاذ يزبك ان يترجم الانترناسيونال الى العربية فترجمه فيما بعد .

واثناء تلك السهرة في بكفيا قرر برغر ويزبك والشمالي دعوة كل من فريد طعمة والياس قشعمي وبطرس حشيمي للحضور في يوم معين الى بيروت والبحث في أمر تأسيس حزب بلشفيكي في لبنان .

وبعد ايام من سهرة بكفيا عقد اجتماع في حدث بيروت حضره بالاضافة الى برغر ويزبك والشمالي وفريد طعمة والياس قشعمي وبطرس حشيمي كل من نمر هبة المحامي ، وعامل فلسطيني في سكة الحديد من حيفا ، والياس ابو ناضر المحامي ، والياس جهشان المحامي ، وشفيق مظهر المستخدم في شركة كوك وتناول البحث في هذا الاجتماع امر تأليف حزب بلشفيكي .

وكانت الفكرة التنظيمية جديدة كل الجدة على الافكار رغم الشعور القوي بضرورتها واهميتها ، والذي عبر عنه بعضهم في الصحافي التائه قبل اكثر من عام من الزمن . ولذلك فان وجهات النظر لم تكن متفقة تماماً على جميع الامور التي بحثت رغم الاتفاق التام بين الجميع على ضرورة تشكيل الحزب . وفي هذا الاجتماع اعلن برغر لجميع الموجودين ، بكل صراحة ، انه بلشفيكي وانه منتدب من الحزب البلشفيكي في فلسطين لانشاء فرع للحزب في لبنان . وكان يزبك والشمالي قد اخبرا عدداً قليلاً من الحاضرين بصفة برغر ومهمته قبل الاجتماع .

وعند هذا الاعلان وقع اول اختلاف في وجهات النظر بين

برغر وبعض الحاضرين خاصة الاستاذ يزبك ، لان الحاضرين كانوا ينوون تأليف حزب بلشفيكي ، في حين ان برغر كان يقصد تأليف فرع للحزب البلشفيكي في فلسطين . والاختلاف بين القصدين واضح وهام سواء من حيث قيمة العمل البلشفيكي في سورية ولبنان او من حيث استقلال هذا العمل ونتائجه .

وقد اصر الرفاق اللبنانيون على ضرورة اصدار جريدة تنطق باسم الحزب الجديد في لبنان وسألوا برغر عما اذا كان الحزب مستعداً لاعانتهم في هذا المضمار فطلب موازنة تقديرية للجريدة فقدمت له . وتعهد برغر في ذلك الاجتماع بنقل هذا الاقتراح الى الحزب في فلسطين وطلب مساعدته لاصدار الجريدة . غير انه راح بعد ذلك يداور ويؤجل حتى اخبر الرفاق اخيراً ان الحزب يجتاز ازمة خانقة في فلسطين بسبب اعتقال معظم اعضائه واضطراره للانفاق عليهم وعلى عائلاتهم .

وكان الاجتماع الأول مشوشاً لم يصل فيه المجتمعون الى قرارات حاسمة فتبعه اجتماع ثان في حدث بيروت ايضاً تخلف عنه عدد من الذين حضروا الاجتماع الأول . اما الذين حضروا الاجتماع الثاني فهم اليهودي برغر ويوسف ابراهيم يزبك ، وفريد طعمة وفؤاد الشمالي وشفيق مظهر والياس قشعمي وبطرس حشيمي وقرروا في هذا الاجتماع الثاني تأسيس حزب بلشفيكي في لبنان يتستر تحت اسم « حزب الشعب اللبناني » لتضليل الحكومة .

ولما كان فؤاد الشمالي يسيطر على نقابة عمال التبغ في بكفيا ،

فانه استعان بهذه النقابة وعمالها لنشر الفكرة البلشفيكيـــة بين العمال والدعوة السرية للانضمام لحزب الشعب اللبناني . وهكذا انتشر الحزب بصورة خـــاصة بين عمال التبغ في بكفيا ، وبسكنتا ، وانطلياس ، والشياح ، وزحلة ، وضهور الشوير ، وهي المناطق التي كانت تكثر فيها معـــامل التبغ آنذاك . كما استطاع ان يضم اليه عددا من عمال المهن الاخرى .

وبقيت علاقـــة حزب الشعب اللبناني بالحزب البلشفيكي في فلسطين وثيقة جداً طوال السنوات الاولى من حياته . فقـــد توالى عليه ثلاثة من اليهود المكلفين بتأمين الارتباط بين الحزبين واعطـاء التوجيهات اللازمة لحزب الشعب اللبناني في نشأته . واول هؤلاء الثلاثة كان جوزيف برغر ، امـا الثاني فيدعى : « ابو زيام » وهو بلشفيكي قديم كان رفيق لينين في سويسرا ثم انتدب لتنظيم الدعوة البلشفيكية في البلدان العربيـة ، وكان في ذلك الوقت من ابرز البلشفيكيين في فلسطين . ويدعى الثالث : « الياهو تيبر » (E. Teper) .

وكانت التوجيهات الاولى التي حملها ابو زيام للرفاق في لبنان هي الهجوم على الاقطاعيين والاغنياء من ابنـــاء البلاد ، ومن الملاحظ ان مقالات الاستاذ يزبك في الصحافي التائه كانت تحمل هذا التوجيه نفسه منذ اواخر عـام ١٩٢٢ ، كما سنرى ان حملة الشيوعيين على الصهيونية فيما بعـــد ستقترن بحملة موازية على الاقطاعيين والرجعيين .

وقد طلب الرفاق في لبنان ، من ابو زيام ان يقوم الحزب

البلشفيكي في فلسطين باستنكار وعد بلفور فتلكأ ابو زيام في ذلك ولكنه عاد وقبل به واصدر الحزب البلشفيكي في فلسطين بياناً بهذا المعنى . وكانت تلك هي المرة الاولى التي يستنكر فيها الشيوعيون اليهود هذا الوعد .

واتضح من التوجيهات اليهودية لحزب الشعب اللبناني ، ان البلشفيكيين اليهود كانوا يريدون ان يسجن الرفاق في لبنان ، وان تضج الصحف بما يقومون به من اعمال ، وان يكونوا آلة في ايدي اليهود لا يناقشون ولا يعارضون .

وما ان حل نيسان (ابريل) ١٩٢٥ حتى كان حزب الشعب اللبناني قد احس انه قد اصبح قوياً لدرجة يستطيع معها ان يظهر على مسرح العمل الشعبي العلني ، فاختار اول ايار (مايو) مناسبة لذلك .

ففي اواخر نيسان (ابريل) وزع الحزب اول بيان علني له على الشعب يدعوه فيه للاحتفال بعيد اول ايار ، وتاريخه اول ايار ١٩٢٥ ، كما ابتدأ يستعد لاقامة حفلة عامة بهذه المناسبة في مسرح الكريستال في بيروت .

وفي ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩٢٥ تقدم فريق من اعضاء الحزب من الحكومة اللبنانية بطلب اجازة رسمية للعمل . وقد كتب هذا الطلب باللغة الفرنسية ووجه الى حاكم لبنان الكبير السيد كايلا ، وجاء فيه ان الحزب قد تألف باسم حزب الشعب اللبناني ومركزه بكفيا وممثله لدى الحكومة السيد فريد طعمة . وهو يعمل لتنظيم العمال والفلاحين في نقابات والدفاع عن حقوقهم

ورفع سويتهم ووضع الاوقاف تحت اشراف الحكومة وتحرير المرأة . ووقع هـــذا الطلب كل من السادة : يوسف ابراهيم يزبك ، الياس سرور ، مخايل داود ابي حنا ، فارس معتوق ، الياس قشعمي ، بطرس حشيمي ، فريد طعمة ، بشارة كامل .

وتحت حماية هذا الطلب اقام الحزب اول احتفال عام بعيد اول ايار في سورية ولبنان ، مع العلم ان عمال جريدة الصحافي التائه كانوا قد احتفلوا به على نطاقهم الضيق قبل عـــامين من الزمن .

وتم الاحتفال في قاعة مسرح الكريستال في بيروت والقيت فيه عدة خطب منها خطاب لفؤاد الشمالي ، وقصيدة للشاعر الياس ابي شبكة بعنوان : « العامل الثائر » وخطاب للاستاذ يوسف يزبك الذي كان عريف الحفلة قدم في نهايته مطالب العمال وهي تتلخص فيما يلي :

١ ـ ثماني ساعات عمل كل يوم

٢ ـ سن قانون لحماية العامل

٣ ـ طلب ضمان اجتماعي ضد حوادث العمل والشيخوخة

٤ ـ منع العمل الليلي .

وفي نهاية الاجتماع تألفت لجنة من خمسة وعشرين شخصـــاً بينهم معظم اقطاب حزب الشعب اللبنـاني والاساتذة جبران التويني وميشال زكور ونمر هبة وغيرهم ، لمتابعــة تحقيق هذه المطالب .

ولقد كان هذا الاحتفال نقطة انطلاق في نمو الحزب والعمل

النقابي في لبنـــان فكتبت عنه معظم صحف بيروت وخاصة الأحرار التي كان يحررها الاستاذ جبران التويني ، والصحافي التائه وغيرهما . وجاء في وصف هذا الاحتفال ان القاعة كانت مزدانة بالأعلام الحمراء ، وان صاحبها السيد كريدية قد تبرع بها للاحتفال مجاناً وان حزب الشعب سار بمظاهرة اخترقت شوارع بيروت وهو يحمل الاعلام الحمراء ويهتف لأول ايار .

وقد كانت هذه المظاهرة ونجاحها حافزاً قوياً لتنظيم العمـل النقابي في لبنان ، فانتظم النجارون في نقابة بهمة السيد الياس متى وهو نجار وصاحب محل موبيليا ، وتبعتها نقابة الحلاقين بهمـة الحلاق وديـع الهبر وكلاهما من اعضاء حزب الشعب اللبناني .

كما ان النجاح الذي صادفه احتفال اول ايار قد شوق الاستاذ يزبك للانصراف للعمل الحزبي ، فترك عمله في مرفـــأ بيروت وانصرف للعمل الصحفي فأصدر جريدة « الانسانية » التي كانت تصدر اسبوعية في بيروت .

وتعتبر « الانسانية » أول جريدة شيوعية بالمعنى الصحيـح في سورية ولبنان ، بما كانت تحمله من التوصيات الحزبية المنضبطة ضمن خط واضح . وقد صدر من الجريدة خمسة اعـــداد فقط ثم عطلتها الحكومة لنزعتها البلشفيكية المفضوحة بعد ان منعتهــــا الحكومـــة الانكليزية من دخول مصر للسبب نفسه ايضاً ، وأصدرت سلطات الانتـداب الفرنسي في لبنان ، بعـد تعطيل الانسانية ، امراً باعتقال الاستاذ يزبك فهرب من لبنان وسافر الى فرنسا حيث استقر في باريس واتصل بجريدة « الاومانيته » لسان

حال الحزب الشيوعي الفرنسي .

ويعتبر هـذا الاتصال بجريدة « الاومانيته » الفرنسية ، وخاصة بمارسيل كاشان الذي كان يشرف عليها ، اول اتصال بين الحزب الشيوعي الفرنسي والشيوعيين في سورية ولبنان . اذ انه لم يكن هناك قبل زيارة الاستاذ يزبك لباريس اية صلة بـين الحزبين الشيوعيين . وهذه الحقيقة تدحض بعض الظنون السائدة عند الكثيرين من ان الحزب الشيوعي الفرنسي هو الذي اوجـد الحركة الشيوعية بتأثيره المباشر في منطقة الانتـداب الفرنسي في سورية ولبنان .

ولئن كان الشيوعيون الفرنسيون لم يوجدوا بالفعل الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، فان اثر الفكر الفرنسي كان قوياً جداً في خلق الجو الاشتراكي البلشفيكي الذي جـاء اليهود من فلسطين فاستغلوه ونظموه . فنحن نجد في جريدة الصحافي التائـه اشارة صريحة الى جريدة الاومانيته الفرنسية منذ عام ١٩٢٣ . ففي العدد رقم : ٧٢ – تاريخ ١٩٢٣/٦/٢٧ نقرأ ما يلي ، بقلم الشبح الباكي متكلماً عن الصحافي التائه بعد زيارته لمدينة زحلة :

« ... الا نشبهها بادارة « الاومانيته » يوم انشأهـا المثلث الرحمات جوريس ، ونشبه صاحبها بالرفيق مارتان ونظراتـه المشعة .

« وهل تتكيف مباديء « الصحافي التائه » وتتطور تطور زميلتها « الاومانيته » ، او نظل شعباً خاملاً مستعبداً للزعماء .

« ... فطار بنا الخيال الى المدينـة الحمراء ، الى بركان ثورة

العالم المقبلة ، الى موسكو ... ثم تطلعت الى مدينة لبنان الجميلة فلم ار مداخن وفؤوساً ... فصعدت زفرتين ...»

وفي هذا دليل كاف على ان الادباء السائرين في الاتجـــاه الشيوعي كانوا يتغذون ممـــا تمدهم به هذه الجريدة من آراء ودراسات وتوجيهات .

وكانت مشكلة المستأجرين ، كما لاحظنا من مقالات الصحافي التائه قبل سنتين، مشكلة حادة في حياة لبنان ، فقام المستأجرون بمظاهرة في ساحة البرج في بيروت في شهر تموز (يوليه) ١٩٢٥ اصطدمت بالشرطة وسقط على اثرها عدد من القتلى والجرحى .

وشحذت هـذه المظاهرة همة حزب الشعب اللبنـاني فابتدأ يطبع نشرات على الجلاتين ويوزعها على الفروع .

الحزب الشيوعي :

وفي هذه الاثناء جرى اتصال بين البلشفيكيين الأرمن الذين كانوا قد ألفوا حزباً خاصاً لهم باسم « حزب سبارتاكوس » وعلى رأسه ارتين مادويان ، فتوحد الحزبان في الحزب الشيوعي وتألفت لجنة مركزية موقتة من يوسف ابراهيم يزبـــك ، فؤاد الشمالي ، ارتين مادويان ، هيكازون بوياجيان ، الياس ابو ناضر .

ولم يكن الانتداب الفرنسي مرتاحاً في سورية خـلال تلك السنوات . فالثورات لم تنقطع ، من ثورة صالح العلي في جبـال العلويين ، الى ثورة ابراهيم هنانو في منطقـة حلب . كما ان الشعب كان لا يزال يحن الى استقلاله الذي فقده بعد معركة ميسلون .

ولم يكن يبدو ان السوريين قد قبلوا الانتداب كأمر مفروغ منه او انهم ابتدأوا يحاولون ان يتكيفوا معه ويماشوه .

وما لبثت حالة التوتر هذه ان انفجرت في تموز ١٩٢٥ في جبل الدروز عندما أعلن سلطان الاطرش الثورة السورية على الفرنسيين. وما عتمت هذه الثورة التي استمرت حوالي سنتين، ان امتدت الى معظم المناطق السورية في دمشق وحوران وحماه وبعض المناطق اللبنانية المتاخمة مثل مناطق البقاع وحاصبيا وراشيا وبعض القرى في الشوف .

وفي اواخر تموز ١٩٢٥ اتخذت اللجنة المركزية الموقتة للحزب الشيوعي قراراً بتأييد الثورة السورية ووجهت الى الشعب دعوة لمؤازرة الثوار والانضمام اليهم كما طلبت من الجنود التمرد على سلطات الانتداب والالتحاق بالثورة . وقد صدرت هذه النشرات باللغات العربية والفرنسية والارمنية .

وفي خريف عام ١٩٢٥ اعتقل فؤاد الشمالي . ثم انعقد المؤتمر الاول للحزب في بيروت بتاريخ ١٠ كانون اول (ديسمبر) ١٩٢٥ ، وانتخب لجنة مركزية مؤلفة من سبعة اعضاء بينهم اعضاء اللجنة المركزية الموقتة السابقة .

غير ان سلطات الانتداب ، التي كانت تعاني انكسارات عسكرية في جبل الدروز وحوران لم تكن تتساهل مع مثل هذه الدعوات في بيروت . فاعتقلت في اوائل عام ١٩٢٦ يوسف يزبك وارتين مادويان وعلي ناصر الدين . وقد اتهم علي ناصر الدين بانه شيوعي في حين انه لم يكن كذلك .

واحيل هؤلاء المعتقلون الى المحكمة العسكرية فحوكموا بتهمة تحريض الجيش على العصيان وحث الشعب على الثورة ، وابعدوا الى جزيرة ارواد والرقة والقدموس ، حيث بقوا حتى انتهاء الثورة وعودة جميع المبعدين عام ١٩٢٨ .

وكان اعتقال قادة الحزب الشيوعي وابعادهم ضربة شديدة على نشاط الحزب فتبعثرت قواه وتمزق شمله ولم يعد له اي وجود فعلي في البلاد .

وتعتبر هذه الفترة على علاتها ، اساسية في اختبارات الحزب التنظيمية ، وعمليات القيادة الجماهيرية . ورغم انه خسر خلالها مؤسسه الاول الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك ، فانه كان قد تمكن ان يبني عدداً من القادة المدربين الذين استطاعوا ان يعيدوا تنظيمه فور عودتهم الى الحياة العادية بعد انتهاء الثورة السورية .

بين الثورة والمعاهدة

وفيما بين عامي ١٩٢٨ و ١٩٣٢ اصبح فؤاد الشمالي قائد الحزب في سورية ولبنان ، واتجهت عناية الشيوعيين بصورة خاصة الى اعادة تنظيم الفروع وانشاء فروع جديدة . فامتد الحزب الى مدينة طرابلس التي غدت اقوى فروع سورية ولبنان والى بيروت ودمشق وبعض المناطق الريفية .

وفي عام ١٩٣٠ انضم خالد بكداش الى فرع الحزب في دمشق ، وله من العمر يومذاك ١٨ ثمانية عشر عاماً فقط ، وكان ذكياً طلق اللسان يعرف العربية والفرنسية والكردية ، وينتمي

الى عشيرة كردية قوية . وما لبث خالد بكداش ان قفز الى مركز القيادة الاولى في الحزب الشيوعي ، وابتـــدأ يطمح للسيطرة الكلية على الحزب .

وليس من السهل توضيح ملابسات فترة النزاع على القيادة في الحزب الشيوعي لعدم نشر اية وثائق او دراسات موثوقة عنها . ولكن المعروف هو ان فؤاد الشمالي اخرج من قيادة الحزب عام ١٩٣٢ وحل محله خالد بكداش يعاونه كل من ارتين مـادويان ورفيق رضا الذي كان حديث العهد بالحزب ، ثم انضم اليهم كل من نقولا شاوي وفرج الله الحلو وبذلك تثبتت هـــذه القيادة الجديدة واستمرت تسيطر على توجيه الحزب حتى اليوم .

ومر الحزب الشيوعي في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٢ — ١٩٣٦ بفترة تركيز عقائدي ونشاط ثقافي . فترجم خالد بكداش عام ١٩٣٣ « البيان الشيوعي » ونشره ، وهي اول ترجمة عربية له وقد اعيد نشرها مرتين عام ١٩٤٧ وعـام ١٩٥٥ . كما ترجم عدداً من مؤلفات ستالين بينها : « المسألة الوطنيـــة » . واهتم الحزب الشيوعي بالمسائل الثقـافية فاصدر مجلة « الطليعة » في بيروت تحت اشراف لجنة خاصة فيها عمر فـاخوري ويوسف يزبـك وقدري قلعجي . ودأبت هذه المجلة على نشر الفكرة الشيوعية والتعليلات الماركسية بين صفوف المثقفين فاستقطبت نشاط عدد كبير منهم .

الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي :

كان الحزب الشيوعي حتى اكتشاف أمر الحزب السوري

القومي الاجتماعي عام ١٩٣٥ الحزب الوحيد المنظم العامل على الصعيد الشعبي . وكان من هذه الناحية متقدماً على بقية المنظمات السياسية الموجودة في سورية ولبنان والتي كانت كلها تفتقر الى الخبرة التنظيمية المنبثقة عن قاعدة علمية ، كما تفتقر الى الاساس المبدئي الذي يحفظها ويعطيها قوة .

فالتكتلات السياسية في سورية كانت منقسمة بين فئتين كبيرتين الاولى هي الكتلة الوطنية التي تنادي بانهاء الانتداب وتطالب بالاستقلال وتعارض الحكومات التي تتشكل في ظل فرنسا ، والثانية هي مجموعات السياسيين الذين يتعاونون مع الانتداب ويحكمون باسمه . وكان الشعب بأكثريته الساحقة يتوجه بأمر الكتلة الوطنية ويسير خلف مخططاتها ودعواتها .

وفي لبنان ، لم يكن هناك خلاف اساسي بين الفئات المتناحرة على الحكم لأنها كلها كانت تقبل ضمناً بالانتداب وخاصة بعض الفئات الانعزالية المتعصبة التي كانت تخاف الاستقلال لخوفها على كيان لبنان .

ومن هنا نرى ان موضوع « الاستقلال » في الشام كان الشعار المسيطر على الأذهان والهدف الاخير الذي لم يكن يفكر اي واحد باغفاله .

ورغم ان الشيوعية لم تكن قد استطاعت تحطيم جدار الخوف منها الذي كان يفصلها عن معظم فئات الشعب وحتى العمال منه ، فانها كانت قد استطاعت خلال هذه الفترة ان تكسب عدداً كبيراً من المثقفين ، وخاصة اولئك الذين تلقوا دروسهم في

فرنسا فأحاط بهم الشيوعيون هناك وأرجعوهم الى دمشق وبيروت من دعاة الشيوعية المتحمسين .

وفي اواخر عام ١٩٣٥ اكتشفت سلطات الانتداب حزباً جديداً في بيروت هو الحزب السوري القومي الذي أسسه ونظمه الاستاذ انطون سعاده . وظهر منذ ذلك الوقت ان هذا الحزب يتمتع بنظام ذاتي صارم ، وانه يخلق في اعضائه مقدرة نضالية ممتازة ، كما اتضح ان مبادئه تقوم بصورة مجملة على فكرة قومية تقول بالوحدة السورية ، وعلى اصلاح جذري في الشعب يقول بفصل الدين عن الدولة ومكافحة التعصب الطائفي بشكل خاص ، اما آراؤه الاقتصادية فتجنح نحو الاشتراكية .

وما عتم هذا الحزب ان لاقى انتشاراً قوياً في سورية ولبنان ، رغم الحكم بسجن مؤسسه وعدد وافر من قادته عام ١٩٣٦ .

وقد طرح انتشار الحزب السوري القومي الاجتماعي وفكرته القومية والاصلاحية ، امام الحزب الشيوعي مشكلة فكرية وتنظيمية لم يستطع حلها في وقت قصير .

فمن المعروف ان الاحتكاك الفكري والسياسي بين اعضاء الاحزاب المختلفة ، من شأنه ان يصقل فهم هذه الاحزاب لمبادئها ويرجعها الى اصولها ، ويضطرها للتعمق في الدراسة والتفصيل في الشرح ، لتستطيع مجابهة التيار المعاكس الذي يواجهها وتثبيت الاعضاء في منظماتها وتدعيم ايمانهم بحقيقة الفكرة التي يبشرون بها .

كما ان ظهور منافس قوي على اوساط الشعب المثقفة والعمالية والريفية ، من شأنه ان يحفز الهمم لتقوية العمل التنظيمي في سبيل

الحفاظ على مراكز الثقل في المناطق وافتتاح مناطق جديدة يهدد الخصم بالولوج اليها .

واذا اضفنا الى هذا العامل الداخلي ، عاملاً جديداً خارجياً ، هو انتصار الجبهة الشعبية الفرنسية في انتخابات عام ١٩٣٦، امكننا ان نضع يدنا على حوافز الانتشار الشيوعي الذي سوف نصادفه في السنوات القادمة .

ومهما يكن من أمر ، فان الخصومة بين الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي قد ميزت كل الفترة التالية من تاريخ الحزب الشيوعي . وان العودة الى منشورات الحزب الشيوعي واعداد جريدة « صوت الشعب » والصحف الشيوعية الاخرى وآثار الكتاب والخطباء الشيوعيين في تلك الفترة ، تعطينا دليلاً أكيداً على حدة الهجوم الذي كان يشنه الشيوعيون على الحزب السوري القومي .

ورغم ان عدة منظمات سياسية محلية قد تشكلت في تلك الفترة التي شاهدت تفتحاً حزبياً واسعاً ، فان الشيوعيين ما كانوا يعيرونها اي التفات او اهتمام ، ولا كانوا يكيلون لها اية تهمة . فهم يعرفون ان اساس نشوئها لا يشكل اي نقض لاساس الفكرة الشيوعية ، ولذلك فان بامكانهم ان يتغلغلوا فيها وينسفوها من الداخل ساعة يشاؤون .

ان هذا الخصام ، بين الشيوعيين والسوريين القوميين قد ادى للحزبين خدمة كبرى ، من حيث لا يريد الاثنان ، لأنه كان حافزاً عملياً لهما للعمل والدرس والتوضيح .

الفصل الثالث

الانتشار العلني الأول

١٩٣٦ – ١٩٣٩

تمتاز هذه الفترة من تاريخ الحزب الشيوعي في سورية ولبنان بعدة ميزات خاصة منها :

اولاً : كان الحزب الشيوعي قد اكتسب طوال السنوات العشر السابقة قدرة نضالية وخبرة قيادية لم تكن لغيره من المنظمات ، كما انه كان قد استطاع ان يرسخ اقدامه في كثير من النقابات العمالية التي تشكلت واصبحت اجهزة معترفاً بها ، واستطاع الشيوعيون ان يظهروا انهم هم المدافعون الوحيدون عن حقوق العامل والساعون لتحسين حياته . وفي هذه الفترة اطلقوا شعارهم المعروف « الحرية والخبز » والذي بقي سائداً عدة سنوات .

ثانياً : كان الكومنترن قد اقر سياسة الجبهات الوطنية ، وكانت الجبهة الشعبية الفرنسية قد امنت للشيوعيين فوزاً انتخابياً غير منتظر في انتخابات ايار ١٩٣٦ ، فاعطتهم بذلك في فرنسا دفعة شعبية قوية ، ما لبثت ان انعكست على سياسة فرنسا في المناطق التابعة لها وخاصة في سورية ولبنان . وكان الشيوعيون الفرنسيون والكومنترن حريصين على نجاح حكم الجبهة الشعبية للحفاظ على المكتسبات التي حصلوا عليها وللوقوف في وجه التيار الفاشستي - النازي الذي عظم خطره في اوروبا والعالم . ولهذا السبب تميزت سياسة حكومة الانتداب في سورية ولبنان بتشجيع الشيوعيين وتسهيل الطريق امامهم ليستطيعوا هم بدورهم ان يذللوا العقبات التي قد تنشأ امام حكومة الجبهة الشعبية .

ثالثاً : كان الحزب الشيوعي الفرنسي قد تنبه ، بعد اتصال الاستاذ يوسف يزبك به عام١٩٢٥، الى اهمية الحزب الشيوعي في سورية ولبنان وابتدأ يقيم معه علاقات وصلات . وفي الفترة الممتدة بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٦ اشتدت المقاومة العربية في فلسطين لليهود والانتداب الانكليزي وحصلت الاضطرابات المعروفة عام ١٩٢٩ وعام ١٩٣٣ والتي كانت مقدمة لثورة عام ١٩٣٦ .

ويقول السيد رفيق رضا في مقال له نشرته جريدة « الجماهير » الدمشقية في عددها رقم ٤٦ تاريخ ١٥/٧/١٩٥٩ مخاطباً الشيوعيين :

وفي عام ١٩٣١ - ١٩٣٤ ، والى ما بعد عام ١٩٣٤ ، كنتم

على احسن حال مع الشيوعيين اليهود وكنتم تبادلونهم وداً بود، وتتبادلون معهم البعثات، وتشركونهم في بحث سياستكم واوضاع بلادكم. وقد ارسلتم فرج الله الحلو الى تل ابيب ليستطلع رأي الشيوعيين اليهود في خطة حزبكم، ثم استقدمتم الى بيروت الشيوعي اليهودي «نخمان ليتفنسكي» لتستأنسوا برأيه في احد مؤتمرات الحزب، وقد حضر فعلاً، واشترك بالمؤتمر المذكور، واوصاكم ان تعدلوا موقفكم من الاحزاب والجماعات الوطنية في سورية ولبنان وان تتشددوا في الحملة عليها على اعتبار انها احزاب انتهازية، هذا في وقت كان فيه الاستعمار الفرنسي يمعن في بعض هذه الاحزاب اضطهاداً ونفياً وتشريداً ... »

ويظهر ان الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، انقطع بعد اضطرابات عام ١٩٣٣ وبعد اتصاله بالحزب الشيوعي الفرنسي عن الاتصال الرسمي بالشيوعيين اليهود وتلقي التوجيهات منهم، وابتدأ يرتبط بالحزب الشيوعي الفرنسي.

وقد اتضح هذا الارتباط الجديد عندما اوفدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان عام ١٩٣٦ عضو اللجنة المركزية رفيق رضا كمندوب عنها لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي. وفي باريس افرد له مكتب خاص في مركز القيادة الشيوعية الفرنسية وعمل على تنسيق الجهود المشتركة بين الحزبين خاصة في القضايا المتعلقة بمصالح فرنسا في سورية ولبنان وشمالي افريقيا. (راجع المؤتمر الصحفي الذي عقده رفيق رضا في دمشق بتاريخ ١٢ تموز «يوليو» ١٩٥٩).

وعندما استدعي رفيق رضا الى سورية ولبنان في اواخر عام ١٩٣٨ ارسل فؤاد قازان ليحل محله في مسؤوليته التنسيقية هذه.

رابعاً: بدا في تلك الفترة لجميع الذين يتتبعون سير العمل الحزبي في سورية ولبنان، ان الحزب الشيوعي لا يشكو ضائقة مالية. وبدت مظاهر الترف عليه بكثرة المنشورات التي يطبعها ويوزعها باثمان لا تكاد تعادل قيمة تكاليفها، وبالمهرجانات التي يعقدها دون ان يكلف اعضاءه شيئاً من مستلزماتها.

ويقول رفيق رضا في مؤتمره الصحفي المذكور آنفاً ان بعض الشيوعيين اليهود وفدوا الى بيروت عام ١٩٣٢ وحملوا معهم مبالغ طائلة من المال – لا يذكر قيمتها – اعطيت لقيادة الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، ويذكر اسمي «اميل واوسكا» و «مولر» بينهم. كما يقول انه حمل معه من باريز عام ١٩٣٨ مبلغ خمسة وعشرين الف فرنك فرنسي وضعها الحزب الشيوعي الفرنسي تحت تصرف الحزب في سورية ولبنان، وكانت هذه القيمة تساوي في ذلك الوقت خمسة الاف ليرة سورية – لبنانية وتعتبر ثروة كبيرة. ويقول ايضاً ان خالد بكداش كان قد نقل معه مبلغاً طائلاً آخر عندما كان في فرنسا في ذلك العام. وهكذا استطاع الحزب الشيوعي ان يضع تحت تصرف اعضائه المناضلين ما يسهل لهم سبل العيش ويطلقهم للعمل الحزبي براحة واطمئنان.

طور المعاهدتين

ادت الاضرابات الواسعة التي قامت بها المدن السورية في

مطلع عام ١٩٣٦ والمظاهرات الدامية التي استمرت حوالي خمسين يوماً وسقط فيها عشرات القتلى في دمشق وحمص وحماه وحلب ، الى دعوة وفد سوري ذهب الى باريس لمفاوضة الحكومة الفرنسية في امر عقد معاهدة تنهي حالة الانتداب وتعطي سورية استقلالها.

وعندما تسلمت حكومة الجبهة الشعبية برئاسة الاشتراكي ليوم بلوم زمام الامور ، عجلت بانهاء المفاوضات مع الوفد السوري بعد مماطلة الحكومة السابقة، وعقدت معه اتفاقية عرفت بمعاهدة عام ١٩٣٦ ، تنهي الانتداب الفرنسي في سورية ولكنها تبقي السيطرة الفرنسية العسكرية والخارجية والثقافية والمالية على البلاد . ووعدت الحكومة الفرنسية بعرضها على البرلمان الفرنسي لتصديقها في اقرب وقت ممكن .

وقد استتبع عقد المعاهدة السورية ـ الفرنسية عقد معاهدة مماثلة بين لبنان وفرنسا .

وابتدأ الفرنسيون ، بعد التوقيع المبدئي على المعاهدة يسمحون للسوريين واللبنانيين بممارسة بعض مظاهر الاستقلال ، فجرى انتخاب مجلس نيابي سيطرت عليه الكتلة الوطنية في سورية، واستقال محمد علي العابد رئيس الجمهورية وانتخب هاشم الاتاسي رئيساً للجمهورية السورية بدلاً عنه ، وتألفت وزارة استقلالية برئاسة جميل مردم ومن اعضائها شكري القوتلي ، وعاد جميع المنفيين السياسيين الى البلاد . اما في لبنان فقد انتخب اميل اده رئيساً للجمهورية وكان المجلس النيابي الذي تشكل آنذاك مزيجاً من نواب منتخبين مباشرة من الشعب وآخرين معينين من الحكومة .

غير ان الظاهرة البـــارزة في تلك الفترة هي اطلاق الحرية السياسية في سورية ولبنان ومن ضمنها حرية الصحافة ، فاصدر الحزب الشيوعي في سورية ولبنان جريـدته الرسميـة « صوت الشعب » وظهر العدد الاول منها في بيروت بتاريخ ١٥ ايار ١٩٣٧.

وكانت سياسة الحزب الشيوعي ، خلال هـــذه الفترة تدور كلها حول تمجيد الصداقة بين سورية ولبنان من جهة وفرنسا من الجهة الثانية ، كما كانت تدافع بكل حرارة وحماسة عن المعاهدتين وتشجب كل محاولة لانتقادهما وتدعو الناس للايمان بأنهما سوف تكونان فاتحة الخير واليمن على البلاد باسرها .

واحتلت عبارات تمجيد فرنسا معظم صفحات صوت الشعب فاغدقت على الدولة المنتدبة النعوت المحببـة للافكار المتحررة ، فقالت عنها انها « فرنسا الديموقراطية » و « فرنسا الجبهة الشعبية » و « فرنسا عام ١٧٨٩ » و « فرنسا الحرية والاخاء والمساواة ».

غير ان فرنسا الانتداب ، والفرنسيين القابعـــين في دوائر المفوضيه العليا في بيرت ودمشق لم يكونوا يفهمون كل هـــذه الكلمات بل كانوا يتمسكون بوجـود فرنسا في « دولتي المشرق » ويستعدون للقيام بكل مناورة للحفاظ على هذا الوجود .

فبعد ان اعطيت حكومة دمشق بعض الصلاحيات ، ابتدأ الفرنسيون يسترجعونها شيئاً فشيئاً ، وعادت تدخلاتهم المفضوحة تثير الاقليات العنصرية والطائفية في سورية ، فكان من نتيجـــة ذلك بعض الاضطرابات في محافظـــة العلويين وجبل الدروز ، وحصول تمرد واضح على السلطات السورية في منطقـة الجزيرة

ولم يكن احد يجهل ان ضباط المصالح الخاصة الفرنسيين هم وراء كل هذه الاضطرابات .

ورغم ذلك فان لهجة الحزب الشيوعي لم تتغير تجاه « فرنسا الديموقراطية » بل استمر الشيوعيون يدعون الناس لاتباع طريق واضحة : « ... يجب ان يكون الشعب السوري متحداً قوياً منظماً وان يظهر صداقته لاصدقائنا الديموقراطيين في فرنسا ، ويقوي علاقات الاخاء معهم ويشجعهم حتى يؤيدونا في مقاومة طغاة الشركات الاجنبية وصقور المال . » (صوت الشعب تاريخ ٣ / ٧ / ١٩٣٧) .

وهكذا تتحول المطالبة بالاستقلال في نظر الشيوعيين الى محاربة الشركات الاجنبية وصقور المال ، كما تحول المنتدبون الفرنسيون الى اصدقاء يوزعون الحرية على الشعوب دون حساب.

اما الاضطرابات التي يثيرها الفرنسيون في سورية ، فان الحزب الشيوعي مستعد للتغاضي عنها واعتبارها كأنها غير موجودة اذا كانت اثارتها تهدد الصداقة مع فرنسا . ولا تتورع صوت الشعب عن توجيه النقد الشديد للساسة والصحفيين الذي يجرؤون على اتهام فرنسا بهذه القلاقل وعلى تهديدها بعدم الاستمرار في تطبيق روح المعاهدة ونصها . (صوت الشعب : شهر شباط ١٩٣٨ .) وتقول صوت الشعب « ان كل هذه الاعمال لا تمثل ارادة فرنسا التي نحبها وتحبنا ، فرنسا التي عقدت معنا المعاهدتين ... » (صوت الشعب ٥ / ٥ / ١٩٣٨) وبقي هذا الموقف الداعي للأمل بتصديق المعاهدة مستمراً حتى عندما

اجتح لكل ذي عينين ان فرنسا غير جادة في عرض المعاهدتين على البرلمان ، وان الحكومة التي خلفت حكومة ليون بلوم تجنح نحو اعادة تثبيت السيطرة الفرنسية المباشرة على سورية ولبنان . وهـذا ما وصلت اليه بالفعل في منتصف عام ١٩٣٩ ، عندما حل المفوض السامي المجلس النيابي السوري، بعد استقالة هاشم الأتاسي، وعين حكومة مديرين تأتمر بأمره مباشرة. وحتى في ذلك الوقت ، كان الحزب الشيوعي السوري يصدر في منتصف أيار ١٩٣٩ بياناً يشدد فيه على اهميـة التحالف السوري الفرنسي في حفظ استقلال سورية ويطالب بتصديق المعاهدة (صوت الشعب ٢١ ايار ١٩٣٩) .

وقد انتهج الحزب الشيوعي ، على الصعيد السياسي الداخلي ، في هـذا الطور ، سياسة منسجمة مع المقررات المتخذة في الكومنترن والمطالب المقدمـة من الحزب الشيوعي الفرنسي . فهو لم يحاول تعكير جو الحكم الوطني ولم ينظم اي اضراب او تظاهرة من شأنها ان تزعج الحكومات المحلية بل كان يدعو العمال الى الهدوء والتروي وعدم القيام بأعمال غـير مدروسة (صوت الشعب شهر تشرين الأول ١٩٣٧) .

وبالاضافة الى ذلك ، وتدليـلاً على حسن نوايا الشيوعيين نحو الحكم الوطني طالب الحزب الشيوعي بتوسيع الكتلة الوطنية في سورية بحيث تصبح شاملة جميع العناصر « الوطنية » ويدخلها الشيوعيون كأحد هذه العناصر . واستخدموا لهـذه الغاية شعار « الاتحاد الوطني » . وتقول صوت الشعب بقلم خالد بكداش :

« ولا نعتقد ان بين الهيئات السياسية وبين اخواننا الزعماء الوطنيين والقواد والمجاهدين من يرفض ان تكون الكتلة الوطنية نفسها شكلاً لهذا الاتحاد المنظم ، فتنضم اليها كل الهيئات والاحزاب والجماعات المجمعة على نجاح هذا الدور الوطني ، على ان تعين بوضوح وبصورة ملموسة الاهداف والواجبات المباشرة المتفق عليها ، فتنتظم الجهود لتحقيقها ، ويتم الاتحاد والتعاون بين الجميع في قلب الكتلة الوطنية نفسها على اساس ديموقراطي صحيح منظم . » (تاريخ ١٩/٦/١٩٣٧) واستمر خالد بكداش يكرر طلبه هذا للدخول في الكتلة الوطنية السورية طوال المدة التي استمر فيها يدعو الناس لانتظار تصديق المعاهدة مع فرنسا .

وفي اواخر عام ١٩٣٦ ومطلع عام ١٩٣٧ ابتدأت تركيا تطالب بضم لواء الاسكندرون اليها . وكان محور برلين ـ روما يهدد لندن وباريس تهديداً قوياً في الشرق الأوسط ، فخافت فرنسا وانكلترا ان ينحاز اتاتورك الى الكتلة الفاشستية فيخلق لهما متاعب كثيرة في شرقي البحر المتوسط .

وتمت التسوية بين باريس ولندن وانقره على حساب سورية ولواء الاسكندرون .

ويقول رفيق رضا في مؤتمره الصحفي المذكور آنفاً : « كنت لا ازال آنئذ في فرنسا ايضاً واتصلت بي قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي وبسطت لي الموقف وذكرت ان فرنسا غير مستعدة لاغضاب تركيا ودفعها للوقوف بجانب محور برلين ـ روما ،

خصوصاً وان وزارة الخارجية البريطانية تصر على وجوب ارضاء تركيا بأي ثمن كان . وقيـــل لي صراحة ان الحزب الشيوعي الفرنسي يقف بواقع هذا الحال موقفاً دقيقـــاً من هذه الأزمة الدولية على اعتبار ان احراج موقف الحكومة الفرنسية سيؤدي الى استقالتها ، والاستقالة تؤدي الى انهيار حكم الجبهـة الشعبية ، وهنـــا الكارثة في نظرهم خصوصاً والاتحـــاد السوفياتي يلح بوجوب تجنب كل ما يؤدي الى تغيير الوضع السياسي والحكومي في فرنسا ... هذا وقد نقلت وجهة نظر القيادة الفرنسية الى قيادة الحزب في سورية ولبنان جملة وتفصيلاً . وفي هذه المرة ايضـــاً أخذت القيادة المذكورة برأي قيـادة الحزب الشيوعي الفرنسي فتنكرت بذلك لمصلحة البلاد ... ورأينا قيادة الحزب الشيوعي في سورية ولبنان تتخذ من هذه الكارثة الوطنية الكبرى ... موقف الخيانة فتقر سلخ اللواء وتنادي على ملأ من الناس ان حل قضية لواء الاسكندرون على هذا الشكل ... قد قـــارب بين الدول الديموقراطية وفي مقدمتها انكلترا وفرنسا ووطد الصداقة التقليدية التي تجمعها الى تركيا. وجنب العالم اخطار توتر دولي..»

لقد كان الحزب الشيوعي الفئة الوحيدة في الشعب التي اتخذت مثل هذا الموقف الممالىء للأتراك والفرنسيين ، والجماعة الوحيدة التي رأت اية فائـــدة او مصلحة من سلخ لواء الاسكندرون وتشريد الالوف من ابنائه . ان الحزب الشيوعي لم يكن ينظر بعين المواطن في سورية ولبنان بل بعين غريبة هي عـين المصالح الشيوعية الدولية في مناطق اخرى من العالم .

ونكتفي هنا بأن نلفت النظر ايضاً الى الموقف المسالم الذي وقفه الشيوعيون في طور المعاهدتين . والذي يناقض من اساسه الموقف الثوري الذي كان يقفه الحزب في مطلع عهده وفي طور العمل السري . والسبب في ذلك على ما يبدو ، ليس راجعاً الى طلب الحزب الشيوعي الفرنسي فقط ، بل الى ان الشيوعيين في سورية ولبنان، كانوا يستفيدون من هذه الهدنة مع الحكومات المحلية والمنتدبة ليوسعوا نطاق اعمالهم ويزيدوا في عدد اعضائهم . وبالفعل فقد حققوا شيئاً كثيراً من ذلك ، لان الحزب الشيوعي امتد يومذاك من بيروت الى معظم المدن والقرى في لبنان ، ومن دمشق الى مناطق محافظة العلويين وحلب والجزيرة وحمص وغيرها في سورية .

بقي علينا ان نشير الى ان تطوراً جديداً قد طرأ على التعابير الشيوعية في هذه الفترة . فلم يعد الحزب الشيوعي يشدد على الصفة الاممية للشيوعية ، ولا على اللاوطنية ونفي وجود الامم كما رأينا في السابق ، بل انه تساهل اكثر من ستالين نفسه في موضوع الامة والقومية – وكان كما اشرنا من قبل موضوع نقاش اساسي – فراح خالد بكداش ، يردد كلمة الامة ، والامة السورية في كل مناسبة اثناء خطبه ومقالاته . (مثلاً صوت الشعب تاريخ ٣٧/٦/١٩ وتاريخ ٣٨/٤/٦ الخ ...)

وبعد ان قضى المفوض السامي على كل معالم الحكم الاستقلالي في سورية ولبنان ، استمر الحزب الشيوعي في البلدين يتخذ تجاه فرنسا موقفاً ودياً ويشدد على ضرورة التحالف بين فرنسا وسورية .

وعندما عقد هتلر وستالين تحالفهما المشهور في اواخر آب ١٩٣٩ وهاجمت جيوش المانيا بولونيا – وابتدأت بذلك الحرب العالمية الثانية في اول ايلول ١٩٣٩ ، كان الحزب الشيوعي الفرنسي قد اتخذ موقفاً معادياً للحرب وفر موريس توريز من الخدمة العسكرية هارباً الى المانيا ومنها الى روسيا . وكانت الحكومة الفرنسية قد حلت الحزب الشيوعي الفرنسي وعطلت جريدته « الاومانيته » واعتقلت معظم قادته . اما الظاهرة الغريبة فهي ان جريدة « صوت الشعب » استمرت تصدر في بيروت حتى يوم ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ عندما صدر آخر اعدادها لتلك الفترة .

وما ذلك الا لأن الحزب الشيوعي في سورية ولبنان كان قد اتخذ موقفاً خاصاً به ، دعا فيه الى تأييد فرنسا في حربها مع الالمان ، واعلن قادته ومنهم : خالد بكداش ، ورفيق رضا ، وفرج الله الحلو ، ونقولا شاوي ، استعدادهم للتطوع في الجيش الفرنسي والحرب مع فرنسا ، كما دعت صوت الشعب المواطنين للقيام بمثل هذا التطوع .

غير ان هذا الموقف لم ينقذ الحزب الشيوعي في سورية ولبنان من الملاحقة ولم يخلص صوت الشعب من الاقفال . وقد نفذ هذان الامران في اواخر ايلول ١٩٣٩ ، وانتهت بذلك فترة الانتشار العلني الاول ، وعاد الحزب يعمل من جديد في الخفاء .

وخلال عام ١٩٤٠ – ١٩٤١ اعتقل عدد من قادة الشيوعيين

بينهم فرج الله الحلو ورشاد عيسى وحوكم الجميع فحكم عليهم بالسجن خمس سنوات . اما خالد بكداش فلم يعتقل .

الحزب الشيوعي ومسألة فلسطين

تنبثق المواقف التي وقفها الحزب الشيوعي في سورية ولبنان تجاه المسألة الفلسطينية من نظرته الشيوعية المبدئية التي لا تعترف بوجود الامم ومصالح الامم، بل بوجود طبقات ومصالح طبقات، بقطع النظر عن الامم التي تنتسب اليها هذه الطبقات او تتشكل ضمنها . ومن هنا لم يكن الشيوعيون في سورية ولبنان ينظرون الى اليهود سواء اكانوا في فلسطين او خارجها نظرة خاصة ترى فيهم جماعة من البشر تتطلع الى ارض بلادنا وتعمل على اغتصابها، بل انهم ينظرون اليهم كنظرتهم الى بقية شعوب الارض ، على انهم منقسمون الى طبقتين : الأولى طبقة البروليتاريا اليهودية. والثانية : طبقة البورجوازيين والاثرياء . وبالمقابل فان «الشعب» العربي في فلسطين ، اي الطبقة الكادحة ، قادر ، بل يجب عليه ، ان يوحد جهوده مع البروليتاريا اليهودية لمحاربة طبقة المستثمرين البورجوازيين من اليهود والعرب معاً . ونحن لا نجد في كل ما نشره الحزب الشيوعي حول موضوع فلسطين ، اية اشارة الى نوايا اليهود العدوانية في فلسطين .

غير ان الحزب الشيوعي ، يركز هجوماً شديداً على «الصهيونية» . ويمكن فهم هذا الهجوم وتفسيره على ضوء الماركسية ، لأن الصهيونية حركة عنصرية تحاول تكتيل اليهود

وبعث عصبيتهم الخاصة في جميع انحاء العالم ، وهي لذلك تناقض اسس الماركسية وتجاربها .

وقد ظن الشيوعيون ان هجومهم على « الصهيونية » والمنظمات العسكرية اليهودية يمكنه ان يغطي موقفهم المداهن لليهود ، وقد فاتهم ان اعمال اليهود انفسهم تفضح ارتباط جميع اليهود في العالم بالحركات الصهيونية ومساندتهم المطلقة لاغتصاب فلسطين .

وهنا لا بد لنا من ان نعيد الى الذاكرة ما قلناه فيما سبق عن فضل اليهود على الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، فهم الذين عملوا على تأسيسه ، ومدوه لفترة طويلة بالمال والتوجيه ، كما كانوا يتلقون رجاله في تل ابيب ويرسلون اليه رجالهم لتدارس المعلومات والاختبارات . ولذلك بقي الشيوعيون في سورية ولبنان يحفظون لليهود عامة وللشيوعيين منهم بصورة خاصة ، ود التلميذ لاستاذه المحبوب .

وفي هذه الفترة الممتدة من عام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ كان موقف الحزب الشيوعي في سورية ولبنان من المسألة الفلسطينية يتميز بالخصائص التالية :

اولاً : تشديد الحملة على « غلاة المستعمرين الانكليز والصهيونيين من اتباع جابوتنسكي الفاشستي . » واعتبار هذين العاملين هما المسؤولان عن توتر الحالة في فلسطين وبذر الشقاق بين الشعبين العربي واليهودي .

ثانياً : توكيد ان الهدف الأول للشعبين العربي واليهودي

هو : « الوصول الى رفع لواء السلام والهدوء والاخاء والعمل المنتج على ربوع فلسطين .

ثالثاً : « رفض التقسيم رفضاً باتاً . » لأن التقسيم ، من وجهة النظر الشيوعية يقيم حاجزاً بين العرب واليهود ويعطل تلقيح « جماهير الشعب العربي » ببذور الشيوعية التي يحملها اليهود ، كما انه يقوي الفكرة العنصرية اليهودية التي تستند اليها الصهيونية . وهذا الرفض اذا نظرنا اليه من وجهة النظر الشيوعية وجدناه موقفاً منسجماً كلياً معها ومنبثقاً عنها انبثاقاً صحيحاً . ولا بد لنا هنا من ان نشير الى ان الاتحاد السوفياتي لم يكن قد ابتدأ يلعب دوراً هاماً في الشرق الاوسط ليصبح الحزب الشيوعي في سورية ولبنان مضطراً لضبط خطواته معه . فيقبل التقسيم بعد عشر سنوات من رفضه المبدئي المستمر له .

رابعاً : التشديد على بعض المطالب الاصلاحية ومنها وقف الهجرة « الصهيونية » (نشدد على وجوب الانتباه لكلمة صهيونية لأنها لا تعني اليهودية عند الشيوعيين) ومنع بيوع الاراضي ، واقامة نظام دستوري ديموقراطي يضمن انتشار السلام والهدوء في فلسطين . (تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الى مؤتمر بلودان ، صوت الشعب ١٩٣٧/٩/١٥) ولا تحدد هذه المطالب نوع الحكم الدستوري الديموقراطي ولا تتعرض لموضوع الاستقلال ، او الغاء الانتداب الانكليزي وهما الموضوعان الرئيسيان اللذان كانت تنصب عليهما مطالب الفلسطينيين والشعوب العربية . (راجع مقررات مؤتمر بلودان المنعقد بتاريخ ٨ و ٩

و ١٠ ايلول – سبتمبر – ١٩٣٧) وهذا التغافل عن موضوع الغاء الانتداب والاستقلال ناجم ، في الاغلب ، عن عدم رغبة الحزب الشيوعي في ايجاد مجال للخلاف بينه وبين اليهود وعدم احراجهم في هذه الناحية الدقيقة .

ان الحزب الشيوعي ، في هذا الموضوع القومي الخطير ، كما في موضوع المعاهدتين والاسكندرون لم يكن ينظر بمنظار مصالح الشعب العليا ، بل بمنظار الشيوعية ومصالح جماعات غريبة عن شعبنا وعدوة له .

الفصل الرابع

الانتشـــار العلني الثـــاني

١٩٤٣ – ١٩٤٨

اضطر الحزب الشيوعي في سورية ولبنان بعد حملة الاعتقالات التي شنت عليه ، الى اتباع طريق التخفي والتستر ، وتجميد نشاطه في كثير من المناطق . غير ان هذا الامر لم يطل عليـه كثيراً . فعاد بعد اقل من سنتين الى ممارسة شيء من النشاط العلني ما لبث ان ازداد واتسع حتى اصبح نشاطاً شبه رسمي تتبناه كثير من الدوائر الخارجية والشخصيات الرسمية الوطنية .

ويمكننا ان نرجع سبب هـــذا الانفراج الى عامل خارجي اساسي لم يكن بارزاً من قبل ، وهو الاتحاد السوفياتي . فان دخول الاتحاد السوفياتي الحرب العالمية الثانية بعد هجوم الالمان عليه في حزيران ١٩٤١ ، جعل الاحزاب الشيوعية في العالم اجمع تهب لنصرة الحلفاء وتضع جميـع امكانياتها تحت تصرفهم .

وفي هذه الفترة ايضاً جلا الفرنسيون والانكليز عن سورية ولبنان ، بعد ان تحطم النفوذ الفرنسي على الصعيد الشعبي في البلدين بشكل لم يعد له نهوض من بعده وتبع خروج الجيش الفرنسي من سورية ولبنان خروج فرنسا سياسياً وثقافياً ايضاً .

وكانت هذه الضربة الموجهة للنفوذ الفرنسي في سورية ولبنان ، والتي واجهها الحزب الشيوعي بشيء كثير من الالم والمرارة المكبوتين ، منعطفاً اساسياً في سياسة الحزب ، لأنه اخذ منذ ذلك الوقت ، وتمشياً مع بروز الاتحاد السوفياتي على الصعيد الدولي وخاصة في الشرق الاوسط ، يتابع سياسة روسيا الخارجية ويوافق تحركاته مع خطوط هذه السياسة .

ويمكننا ان نعتبر هذا الانتقال العلني لمركز توجيه سياسة الحزب الشيوعي السوري اللبناني الى موسكو الانتقال الثالث بعد تل أبيب وباريس ، ولعله الانتقال الاخير . كما انه يدل من جهة ثانية على ازدياد الأهمية التي تعلقها الشيوعية الدولية على النشاط الشيوعي في البلدين . فان انتقال الحزب من فرع تابع للحزب الشيوعي اليهودي ، الى حزب تابع للحزب الشيوعي الفرنسي المرتبط بدوره بموسكو ، ثم الى حزب له شخصيته المستقلة ومرتبط رأساً بموسكو ، دليل على ارتفاع قيمة الحزب في الأوساط الشيوعية وازدياد اهمية الاعمال المكلف بها . وتدل دراسة النشاط الشيوعي في العالم العربي ، خلال هذه المرحلة على ان الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، وخالد بكداش بصورة شخصية ، قد اصبح مسؤولاً عن النشاط الشيوعي في الأردن

والعراق ، وقد يكون في مناطق اخرى من الشرق الاوسط .
وهكذا ابتدأ الحزب الشيوعي في سورية ولبنان يهيء نفسه منذ تلك السنوات لعمليات اوسع وأعمق سوف تظهر بعد اقل من عشر سنوات .

مع الحلفاء :

دخلت جيوش فرنسا الحرة والجيوش البريطانية الى سورية ولبنان في حزيران ١٩٤١ فانسحب الجنرال دنز مع بقية الفرنسيين الذين بقوا على ولائهم لحكومة فيشي ، بعد ان سبقتهم اللجنة الالمانية - الايطالية ، فانزاح بذلك عن صدر الشيوعيين كابوس ضاغط بقي يضيق عليهم انفاسهم طوال سنتين تقريباً .
وكان ديغول قد عقد مع الشيوعيين الفرنسيين اتفاقاً حول المقاومة السرية في فرنسا ، وأخذ يتقرب من روسيا ويفسح المجال أمام النشاط الشيوعي في جميع المناطق التي يسيطر عليها .
وكان الانكليز من جهتهم قد تمكنوا ، قبل دخولهم الى سورية ولبنان ، ان يمهدوا الطريق أمام جيوشهم بصداقات متينة عقدوها مع عدد من النافذين في معظم المناطق وعدد آخر من رجال السياسة البارزين. وقد ادى هذا التصاعد في نفوذ الانكليز، وسيطرتهم الفعلية على سورية ولبنان خلال الفترة التي احتل جيشهم فيها البلدين ، الى انخفاض موازٍ في نفوذ فرنسا التي فقدت هيبتها بعد انهيارها المريع عام ١٩٤٠ .
ولما كانت جماهير الشعب في سورية خاصة لا تعطف على

فرنسا ولا تودها ، لذلك اضطر الفرنسيون في سنوات حكمهم الاخيرة في سورية ولبنان ان يعتمدوا على قوة شعبيـة متحركة ، فلم يجدوا أمامهم غير الشيوعيين .

وهكذا تميزت هذه السنوات ، حتى وقت الجـلاء ، بانسجام عميق بين المفوضية الفرنسية والحزب الشيوعي في سورية ولبنان.

وكانت اول بادرة من بوادر هـذا الانسجام عودة جريدة صوت الشعب للصدور ، فظهر أول عدد منها بعد التعطيل في ٢٠ كانون الثاني (يناير)١٩٤٢ . وحدد خالد بكداش في افتتاحية ذلك العدد سياسة الشيوعيين بأنها تنصب على مساعدة الحلفـاء في عملهم « لابادة النازية » وعلى تسهيل مجهودهم الحربي . ونلاحظ هنا ان موقف الحزب الشيوعي العلني،من هذا الموضوع لم يتبدل كثيراً ، وان صوت الشعب ، كما ذكرنا ، كانت تقول هـذا القول في ايلول ١٩٣٩ .

انتخابات ١٩٤٣

كان الحلفاء قد اقاموا بعد دخولهم الى سورية ولبنـان عام ١٩٤١ حكماً وطنياً غير برلماني ، يتألف في كل بلد من رئيس للجمهورية ومجلس للوزراء . وعـين المفوض السامي الفرنسي الجنرال كاترو الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية السورية والسيد الفرد نقاش رئيساً لجمهورية لبنان .

غير ان هـذا النظام لم يكن يرضي العناصر الوطنية خاصة في سورية فقاطعه معظم رجال الكتلة الوطنية بعد ان رفض الجنرال

كاترو واعلان التصديق على معاهدة ١٩٣٦ وتطبيق نصوصها .

وعندما توفي الشيخ تاج الدين الحسني في عام ١٩٤٢ فتحت المشكلة من جديد ، وابتدأت مظاهرات واضرابات في دمشق ومدن سورية ، وتركزت شعارات النضال على الاستقلال التام وتنفيذ الوعد الذي قطعه الجنرال كاترو باسم فرنسا الحرة عند دخول جيوش الحلفاء عام ١٩٤١ وايده الانكليز والقائل باعطاء سورية ولبنان استقلالهما التام. وادت هذه المظاهرات الى تأليف حكومة انتقالية في سورية أجرت انتخابات نيابية على درجتين ، ومن الطبيعي ان يستتبع اجراء هذه الانتخابات في سورية اجراء انتخابات نيابية مماثلة في لبنان .

واغتنم الشيوعيون فرصة الانتخابات فشنوا حملة اذاعية واسعة تحت ستار الدعاية الانتخابية .

وكانت هذه الحملة الانتخابية مناسبة لاعادة النظر بالشعارات التي يستخدمها الحزب الشيوعي ، والاهداف التكتيكية التي يشدد عليها ، والبرامج التي يعرضها على الناس لجذبهم نحو المباديء الماركسية — اللينينية .

ونحن سوف نحاول ان نميز ، من خلال خطب بكداش وبيانات الحزب الشيوعي ، النقاط الاساسية التي ارتكزت عليها سياسة الحزب في تلك الفترة ، وهذه ابرزها :

اولاً : الديموقراطية المعتدلة : قال خالد بكداش في خطاب له القاه في قاعة ملهى الباريزيانا في بيروت ونشرته صوت الشعب بتاريخ ٩ ايار (مايو) ١٩٤٣ تحت عنوان : « ليست القضية في

نظرنا قضية اقامة نظام اشتراكي في سوريا ولبنان » ما يلي :

« ان القضية ليست في نظرنا اقامة نظام اشتراكي في لبنان او في سورية ، وان كل ما نطلبه ، وما سيناضل لاجله نوابنا القلائل في المجلسين النيابيين في سورية ولبنان هو ادخال بعض الاصلاحات الديموقراطية التي يتحدث عنها الجميع ، والجميع متفقون على ضرورتها ... » ثم اخذ بعد ذلك يطمئن « اصحاب الاراضي والملاكين اننا لا نطالب ولن نطلب في البرلمان مصادرة املاكهم واراضيهم بل نريد على العكس مساعدتهم بطلب انشاء مشاريع واسعة للري وتسهيل استيراد الاسمدة واستعمال الآلة الحديثة ... » كما يؤكد « للتجار الكبار اننا لن نطلب مصادرة تجارتهم مهما كانت كبيرة ... » ويقول عن هذه المطالب انها « ديموقراطية معتدلة جداً . »

ان هذه المطالب التي يعرضها الحزب الشيوعي على الشعب بلسان خالد بكداش ، تشكل تراجعاً جوهرياً عن كل فكرة ثورية وتخلياً عن العمل لتطبيق الاشتراكية عن طريق النضال الثوري في جماهير الشعب . ويمكننا ان نعتبرها تقهقراً واسعاً عن المطالب التي تقدم بها الشيوعيون الاوائل ، على ضعفهم العددي والثقافي ، والتي بنوا الحزب الشيوعي على اساسها .

غير ان هذا التخلي الظاهري عن العمل لتحقيق الاشتراكية يعوضه مخطط تكتيكي آخر لا يقل عنه جرأة ، وهو التصميم على ايصال اي نائب شيوعي الى اي مجلس من المجلسين ، سواء في سوريا او في لبنان . لقد بدت الظروف الدولية والداخلية

مؤاتية لهذا التطور في تكتيك الشيوعيين ، فابتدأوا يخفون عن الشعب المضامين الحقيقية للفكرة الشيوعية ، والمحتويات الجوهرية للسياسة الشيوعية ، ليبرزوا فقط ما يتحسس به الشعب وما يمكن ان يقبله دون ان يثير حوله جدلاً يضايقهم او يلزمهم بكشف حقيقة اهدافهم السياسية البعيدة .

لقد كان الشيوعيون الاوائل منسجمين مع مخططات العمل الشيوعي الثوري الاصيلة التي تلمسوها عفوياً واقرها الكومنترن في مطلع حياته ، مثلما بقي الشيوعيون المتأخرون منسجمين مع مخططات التهدئة والتستر والقبول بالحد الادنى التي سار عليها الكومنترن منذ عـــام ١٩٣٤ وشدد عليها الاتحاد السوفياتي اثناء الحرب .

وفي نهاية عام ١٩٤٣ عقد الحزب الشيوعي مؤتمره الوطني واقر فيه ميثاقاً وطنياً يكرس هذه السياسة ، على ما سوف نرى فيما بعد .

اما الوسيلة التي رأى الحزب الشيوعي انهـــا كفيلة بتحقيق اغراضه فهي الاتحاد الوطني .

ثانياً : الاتحاد الوطني : كان الشعار الأول الذي شدد عليه المرشحون الشيوعيون في سورية ولبنان هو « الاتحاد الوطني » . وهم يستفيدون من جميع المناسبات والظروف والاحـــداث ، الداخلية منها والخارجية ليبرهنوا على ضرورة قيام الاتحاد الوطني وأهميته في بناء مستقبل البلاد بناء ديموقراطياً صحيحاً .

يقول خالد بكداش في خطـاب له ألقاه في حلب ونشرته

جريدة صوت الشعب في عددها رقم ٥٦٣ تاريخ ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٣ ، ما يلي :

« يجب ان يكون السوريون جميعاً من عمال وفلاحين ومثقفين وتجار ومزارعين ورأسماليين وفنيين على اختلاف طبقاتهم وثرواتهم ومذاهبهم واحزابهم ومبادئهم السياسية والاجتماعية ، يجب ان يكونوا جميعاً متحدين حول الحدث القومي الكبير : وهو استقلال سوريا وحريتها في تقرير مصيرها ... الاتحاد الوطني : هذا هو الهدف القومي الكبير. وهذا هو هدف حزبنا الشيوعي.. واذا كنا نطلب الاتحاد الوطني ، واذا كنا نطلب اتحاد جميع القوى الوطنية ، فلأنه في مصلحة بلادنا وخير وطننا . وبعد فليس الآن من هيئة ، مهما كانت ، بمستطيعة ان تدعي انها حائزة على اجماع الأمة حولها ... ان مصيرنا متوقف الى حد كبير على وحدة صفوفنا ... اذا كان من الصعب اقناع جميع الناس بالانتماء الى هذه الهيئة او تلك ، فما الذي يمنع اتحاد كل القوى الوطنية وجميع الهيئات في صعيد واحد ، وحول هدف قومي واحد ؟ ان حزبنا الشيوعي الوطني ، الوطني بكيانه وبنيانه وسياسته وأهدافه ، يمد يد الاخوة الى جميع الوطنيين المخلصين بصرف النظر عن طبقتهم وثروتهم او هيئتهم ومركزهم . »

ويوجز خالد بكداش في مكان آخر الاسباب الموجبة لقيام الاتحاد الوطني ، بسببين أساسيين :

«اولاً : ان ساعة انتصار الحلفاء وانهزام المحور قد غدت قريبة ، وسوريا العربية مدعوة حتماً الى مجابهة احداث كبرى وحل

قضايا خطيرة ... ولأجل حل هذه القضايا بنجاح ، لا بد من قوة كبرى هي مجموع قوى الامة .

« ثانياً : ليس في البلاد هيئة او حزب او جماعة ، لها من القوة ما تستطيع معه ان تأخذ على نفسها وحدها حل كل هذه المشاكل والاهداف القومية ، اذ أنه ليس في البلاد هيئة او حزب او جماعة تستطيع ان تدعي لنفسها وحدها احراز اجماع الامة حولها وحول سياستها او حول ساستها وزعمائها على الأقل .

« هذان هما الاعتباران اللذان يجعلان الاتحاد الوطني ضرورة كبرى وحاجة ماسة لا غنى للبلاد عنها .» (صوت الشعب العدد : ٥٧٥ ، تاريخ : ٣٠ حزيران – يونيو – ١٩٤٣ .)

ويتابع الحزب الشيوعي هنا المخطط الذي قال به عام ١٩٣٧ – ١٩٣٨ عندما عرض دخول الكتلة الوطنية لتحقيق الاتحاد الوطني . ويذهب في هذا المجال ابعد من ذلك فلا يرى مانعاً من ان يكون السيد شكري القوتلي رئيساً للاتحاد الوطني المقترح على ما صرح به خالد بكداش ورشاد عيسى بعد مقابلتها للقوتلي في دمشق . (صوت الشعب العدد ٥٦٨ تاريخ ٢٠ حزيران ١٩٤٣ .)

وقد يكون من المقبول ، بالنسبة لسياسة الجبهات الشعبية التي اقرها الكومنترن ان يجري الشيوعيون تحالفات مع الاشتراكيين وفئات العمال الاخرى . اما ان يقبل حزب شيوعي برئاسة « اقطاعي » للاتحاد الوطني الذي يدعو اليه ، فذلك امر لم يكن ليظن أحد انه ممكن الوقوع .

غير اننا اذا نظرنا الى هدف الشيوعيين الذي هو الوصول الى اي مركز رسمي ، وعرفنا ان الغاية في النظرة الشيوعية تبرر الوسيلة ، فهمنا الحوافز العميقة الكامنة خلف هذا التطور .

ثالثاً : حل الكومنترن : في الوقت الذي كان الحزب الشيوعي يخوض فيه معركة الانتخابات النيابية في سورية ولبنان ، كان الروس يدعون لحل الانترناسيونال الثالث ، وكانت الاحزاب الشيوعية المنضمة اليه تقرر الواحد منها بعد الآخر قبول هذا الاقتراح . وفي ٩ حزيران ١٩٤٣ اصدر جورج ديمتروف بلاغاً خاصاً نقلته جريدة صوت الشعب في العدد ٥٦٣ تاريخ ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٣ كما يلي :

« موسكو – سوبريس – نشرت البرافدا في عددها الصادر في ١٠ حزيران سنة ١٩٤٣ البلاغ التالي من مكتب اللجنة التنفيذية الاممية الشيوعية :

« ان مكتب اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قد محص في جلسته الاخيرة المنعقدة في الثامن من حزيران سنة ١٩٤٣ ، القرارات التي تلقاها من فروعه بصدد القرار الذي اتخذه هذا المكتب في ١٥ ايار سنة ٩٤٣ بشأن حل الاممية الشيوعية فتبين له :

١ – ان اقتراح حل الاممية الشيوعية قد وافقت عليه الاحزاب الشيوعية في المانيا والارجنتين واستراليا والنمسا وبلجيكا وبلغاريا وكندا ، والحزب الاشتراكي الموحد في قطلونا ، والاحزاب الشيوعية في شيلي والصين وكولومبيا ، والاتحاد الثوري الشيوعي في كوبا ، والاحزاب الشيوعية في اسبانيا وفنلندا

وفرنسا وبريطانيا العظمى والمجر وايرلندا وايطاليا والمكسيك وحزب العمال في بولونيا والاحزاب الشيوعية في رومانيا والسويد وسوريا ولبنان والارغواي وتشيكوسلوفاكيا واتحاد جنوب افريقيا ويوغوسلافيا والحزب الشيوعي (البولشفيك) في الاتحاد السوفياتي وحزب الشباب الشيوعي (التابع للاممية الشيوعية) .

٢ – لم يتلق مكتب اللجنة التنفيذية من فروع الاممية الشيوعية اي اعتراض على اقتراحه .

ونتيجة لذلك . ان مكتب اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية :

١ – يعلن ان حل الاممية الشيوعية قد صدق بالاجماع من قبل فروع الاممية الشيوعية التي تستطيع اعلان قراراتها (وهي اهم الفروع) .

٢ – يعتبر اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بما فيها مكتب وسكرتارية اللجنة التنفيذية ، واللجنة الاممية للمراقبة ، منحلة ابتداء من اليوم العاشر من حزيران ١٩٤٣ .

٣ – يكلف لجنة مؤلفة من اركولي ومانويلسكي وبيك برئاسة ديميتروف ، تقوم بالتصفية العملية لشؤون وصحف ومؤسسات وارزاق الاممية الشيوعية .

عن مكتب اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية

٩ حزيران ١٩٤٣ ج. ديميتروف »

واستغل الحزب الشيوعي قرار الحل هذا في حملته الانتخابية واستند اليه في دفع تهمة ارتباطه باوامر خارجية . فقد قال خالد

بكداش في خطابه في حلب والذي نقلته جريدة صوت الشعب في العدد نفسه الذي نقلت فيه قرار حل الانترناسيونال :

« ... واتضح اننا لسنا اعداء الدين ولا العائلة ولا القومية . فراحوا يقولون اننا مرتبطون بمركز دولي ونتلقى تعليماتنا من الخارج !

« ولكن ها قد انحلت الاممية الشيوعية واصبح حزبنا مستقلاً كل الاستقلال عملياً ورسمياً عن كل مركز دولي . فقد كان حزبنا في طليعة الاحزاب الشيوعية التي وافقت على اقتراح حل الاممية الشيوعية وابتهجت له . لقد عقدت اللجنة المركزية لحزبنا في ٢٧ ايار ، اجتماعاً بحضور ممثلي جميع منظمات حزبنا الرئيسية في سوريا ولبنان واتخذت بالاجماع قرارها بالموافقة على اقتراح حل الاممية الشيوعية . واسمحوا لي ان اقرأ لكم بعض فقرات من قرار الهيأة العليا لحزبنا .

قالت اللجنة المركزية :

« ان انفصال الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان عن كل مركز دولي ، هو نتيجة منطقية طبيعية لتطور سياسة الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان خصوصاً منذ عام ١٩٣٧ ، فقد اتبع حزبنا سياسة وطنية كان محورها ولا يزال التحرر الوطني وقوامها اخذ خصائصنا القومية ، ودرجة تطور بلادنا الاقتصادي بعين الاعتبار .

« ولا ريب في ان الوضع الجديد للحزب الشيوعي ، الناشيء عن قرار حل الاممية الشيوعية ، يعطي الحركة الوطنية والشعبية

في سوريا ولبنان قوة جديدة ، فهذا الوضع الجديد يسهل للحزب قبل كل شيء متابعة مهمته الوطنية الكبرى في محاربة الفاشستية والنازية ، اكبر خطر على حركة الاستقلال والتحرر الوطني ، كما انه يقضي على حجة جميع من كانوا يلوحون بعلاقة الحزب الشيوعي بالاممية الشيوعية ويتخذونها ذريعة لمحاولة اقصاء كثير من القوى الشعبية الوطنية والكفاءات الفتية عن الحياة الوطنيـــة ولرفض التعاون معها .

«هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان حل الاممية الشيوعية واستقلال الحزب الشيوعي استقلالاً تاماً ، عمليـــاً ورسمياً ، في نطاقه الوطني ، سيزيل دون شك الحذر عنـد كثير من العناصر الوطنية المثقفة والاخوان القوميين الذين كانوا دائماً موافقين على نظريات الحزب العلمية في التحرر الوطني ومعجبين بنشاطه وسداد خطته ، ولكن نظرهم الى الحزب كفرع للاممية الشيوعية كان يهيب بهم الى التردد في الالتفاف حول الحزب الشيوعي وتأييد مجهوده ونضاله الوطني . »

ثم يقول قرار اللجنة المركزية : « سيعمل الحزب الشيوعي اكثر من اي وقت مضى على تعبئة القوى الشعبية في سبيل الاتحاد الوطني ، حتى تجابه البلاد الاحداث المقبلة عزيزة الجانب بصفوف وطنية موحدة . وسيتابع الشيوعيون اكثر من اي وقت مضى نضالهم وجهودهم لاحياء التراث القومي ، والعمل لاجل تقـدم شعبنا ورقيه في مدارج الرخاء والثقافة . ولاجـــل تسنم وطننا المكانة اللائقة به بعـــد النصر ، في عالم قائم على مبادىء السلام

وحرية تقرير المصير والاخاء بين الشعوب » .

«هذا هو موقف حزبنا بعد حل الاممية الشيوعية ، فاي حجة بقيت لرفض تحقيق الاتحاد الوطني ؟. »

وفي آخر عام ١٩٤٣ وافق المؤتمر الوطني الذي عقده الحزب الشيوعي على هذا الحل . وقال خالد بكداش في تقريره عن هذا الموضوع : « ان المؤتمر يعقد بعد حل الاممية الشيوعية وتحرر كل احزابها من الارتباط بأي مركز اممي ومن كل قرار للمؤتمرات الشيوعية الدولية مما يسهل ، وسهل فعلاً عمل الحزب الشيوعي لاتحاد الشعب في سبيل الهدف الوطني الأكبر . »

(صوت الشعب العدد ٦٨٧ تاريخ ٢/١/٤٤ .)

هذه هي الشعارات الاساسية للمعركة الانتخابية التي خاضها الحزب الشيوعي في سورية ولبنان في صيف عام ١٩٤٣ . وتقدم الحزب الى الشعب في سورية بمرشحين هما خالد بكداش في دمشق وعبد الجليل سيريس في حلب . غير ان الحملة كانت تتركز كلها حول خالد بكداش . فبذل الشيوعيون وانصارهم جهداً كبيرا خاصة في تنظيم المهرجانات الخطابية والاتصالات السياسية التي تهدف لادخال خالد بكداش في قائمة الكتلة الوطنية التي يرأسها شكري القوتلي . وكان الانتخاب يومذاك يجري في سورية على درجتين ، فترشح خالد بكداش كناخب ثانوي عن حي الاكراد في دمشق ونجح بمجموع اصوات قدره ١٠٥٠ صوتاً . وعندما جرت الانتخابات النهائية في اواخر تموز (يوليه) كان عدد الناخبين الثانويين في دمشق ٨٣٠ اقترع منهم ٨١٧ ونال خالد

بكداش ١٣٠ صوتاً . (صوت الشعب العـــدد ٥٩٧ تاريخ ٢٩ / ٧ / ٤٣ .) وتعتبر هذه النتيجة بالنسبة للشيوعيين مشجعـة جداً لأن بكداش كان مستقلاً عن القائمتين المتنافستين .

وما ان انتهت انتخابات سورية حتى ابتدأت الحملة في لبنان . حيث رشح الشيوعيون كلًا من فرج الله الحلو عن جبل لبنـان ، وعمر فاخوري عن بيروت ، وشفيق علم الدين عن محافظة الشمال ، ومايز مسعد عن محافظة الجنوب . (صوت الشعب . ع : ٦٠٣ تاريخ ٦ / ٨ / ١٩٤٣ .) وانسحب نقولا شاوي الذي كان مرشحاً عن بيروت .

وجرت الانتخابات في ٢٩ آب (اغسطس) ١٩٤٣ فكانت النتائج كما يلي : عمر فاخوري : ٢٠٤٦ صوتـــاً ، فرج الله الحلو ٩٠٦٠ صوتاً . اما مايز مسعد وشفيق علم الدين فقد نالا عـدداً قليلًا جداً من الاصوات لم تشر اليه جريدة صوت الشعب (عدد: ٦١٧ و ٦١٩ تاريخ ١ / ٩ / ٤٣ و ٢ / ٩ / ٤٣ .

ولا بد لنا هنا من ان نشير الى ان الشيوعيين كانوا يخوضون معركة الانتخابات في افضل الاجواء النفسية بالنسبة لهم ، لان الجيش الروسي كان يسجل في ذلك الوقت انتصارات كبرى على الالمان في هجومه الاخير الذي شنه عليهم والذي قاده في العامين التاليين عبر اوروبا الى برلين .

والشيء الذي يلفت النظر في هذه الحملة الانتخابية هو انهـا خلت من اية اشارة الى المشكلة القومية الكبرى التي كان الجميع يتهيأون لها وهي مشكلة الاستقلال . وقد لخص رشاد عيسى في

افتتاحيـــة له في صوت الشعب العدد ٦٠٠ تاريخ ١٩٤٣/٨/٣ نتائج انتخابات دمشق فقال :

« ... تقدم الاستاذ خالد بكداش الى المعركة الانتخابية ببرنامج وطني هو برنامج حياته الوطنية والسياسية منـذ نشأته ، برنامج الحزب الشيوعي : التحرر الوطني ، والاتحـاد الوطني ، والنظام الديموقراطي ، وسعادة الشعب السوري . »

واذا ذكرنا ان كلمـــة التحرر الوطني لا تعني الاستقلال السياسي بالضبط ، بل يمكنها ان تتضمن معـاني اخرى وتأول تأويلات متضاربة ، عرفنا ان الحزب الشيوعي ، خلال معركة الانتخابات ، كان يحاول ان يستمر على علاقاته الودية مع فرنسا، وان يساير مطامح الشعب في الوقت نفسه .

وما ان انتهت الانتخابات النيابية في البلدين ، حتى اجتمـع المكتب السياسي للحزب الشيوعي بتاريخ ٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ واصدر بياناً عن نتائج هذه الانتخابات قال فيه :

« ... ومع ذلك يرى المكتب السياسي للحزب الشيوعي ، ان في المجلس النيابي اللبناني ، وفي المجلس النيابي السوري ، عناصر وطنية تستطيـع ، اذا شاءت مجابهة المشاكل الداخلية والخارجية الموضوعة امام بلادنا ، واشاعة الديموقراطية الصحيحـة ، وتأمين الحريات العامة ، والدفاع عن خبز الشعب ورفع مستواه المادي والثقافي ، والعمل لازدهار البلاد الصناعي والزراعي ، وادخال كثير من الاصلاحات على القوانين والانظمة الفاسدة ومراقبة اعمال الحكومة السياسية والاقتصادية والادارية ... » (صوت

الشعب عدد : ٦٢٥ تاريخ ١٢ ايلول ١٩٤٣)

ويستمر هذا البيان ايضاً في اغفاله لتفصيل « المشاكل الداخلية والخارجية » التي تواجه سورية ولبنان ، مع ان جميع الاذهان كانت متجهة اليها ، وكانت تتجمع في سماء لبنان خاصة غيمة كبيرة سوداء ما لبثت ان تفجرت بعد شهرين من الزمن .

ازمة الاستقلال في لبنان

اجتمع المجلس النيابي اللبناني الجديد في ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ وانتخب الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية . وبعد ايام شكل رياض الصلح اول وزارة استقلالية ومعه فيها حبيب ابي شهلا ، وكميل شمعون ، وسليم تقلا ، ومجيد ارسلان ، وعادل عسيران . وكان أول تصريح ادلى به رئيس الوزارة هو دعوته للاستقلال التام وتنبيه الشعب الى ان امامه « مرحلة نضال جديد في سبيل الاستقلال . » (صوت الشعب ع : ٦٣٥ ، تاريخ ١٩٤٣/٩/٣٠ .)

وعندما تقدمت الوزارة من المجلس ببيانها الوزاري كان ابرز ما فيه التشديد على الاستقلال التام ، ووجه لبنان العربي ، وتعديل الدستور اللبناني « ليصبح ملائماً لمعنى الاستقلال الصحيح » وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة وان السلطات اللبنانية هي المرجع الوحيد في جميع شؤون البلاد .

وتعني هذه النقاط القضاء النهائي على نفوذ فرنسا المباشر في لبنان — ونالت الوزارة الثقة على هذا البيان ، باجماع الأصوات .

أما جواب الشيوعيين على البيان الوزاري فكان افتتاحية في صوت الشعب كتبها فرج الله الحلو في العدد ٦٤٢ تاريخ ١٠ و ١١ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٣ وقال فيها :

« ... وليس من ريب في ان الحكومة اللبنانية تدرك ان امامها مصاعب كثيرة ، ودون تنفيذ السياسة التي اعلنتها عقبات كبيرة . والوسيلة الوحيدة للتغلب على المصاعب وتذليل العقبات هي الاستناد الى الشعب بتخفيف بؤسه ومعالجة مشاكله اليومية كلها وحلها حلًا ملائماً ، ونشر روح الديموقراطية في البلاد ، بانتهاج سياسة حكيمة رشيدة منصفة لجميع الطبقات والمناطق تساعد على توحيد صفوف الشعب ونشر روح الاخاء والتضامن في جماهيره . »

ونلاحظ في هذه الافتتاحية انها لم تتعرض ، لا مباشرة ولا غير مباشرة للموضوعات الاساسية التي طرقها البيان الوزاري وعلى الاخص موضوع تعديل الدستور ، بل انها على العكس راحت تداور وتتجنب بحثه والخوض فيه ، وتذكر الحكومة والشعب بالعقبات والصعوبات التي يزرعها الانتداب في طريق الاستقلال .

وبعد أيام من افتتاحية فرج الله الحلو كتب نقولا شاوي افتتاحية ثانية في العدد ٦٤٥ تاريخ ١٦ / ١٠ / ١٩٤٣ بعنوان : « بيان وزاري يذكرنا ببرنامج فرج الله الحلو : » قال فيها :

« ... فاستقلال لا يبدل شروط الشعب الاقتصادية ولا ينهض بجماهيره الكادحة الى المستوى اللائق بهم كمواطني جمهورية ديموقراطية حرة ، لا يكون استقلالاً وطنياً صحيحاً مهما اعترفت به

دول وحكومات اجنبية ... ان استقلالاً من هـذا النوع لن يكون الا صورة ممسوخة لما ينشده لبنان في هذا الظرف العصيب من تاريخه ... وكلنا يعلم ان الجرأة في مثل هذه الظروف محمودة بل لازمة ، ولكن جرأة مقرونة بقسط كبير في صفاء النظر واللباقة والتجرد ... والشرط الاساسي لنجاح الحكومـــة في مهمتها ، هو ان تستوحي في تصرفها ونشاطها وقراراتها رغبات الشعب اللبناني ، دون تطلع ذات اليمين او ذات اليسار للحصول على تأييد او تشجيع . »

ان هذا الكلام ، رغم صحته من الناحية المبدئية يأتي في غير مناسبته، لأن المسألة المطروحة لم تكن الخلاف على ضرورة تأمين الاصلاحات الاجتماعية والسياسية في البلاد او عدم ضرورتها ، بل هي في جعل مقاليد امور الدولة في يد ابنائها ليستطيعوا ان يسلكوا الطريق الصحيح لتحقيق هذه الاصلاحات . ولذلك فان كل ما يقوله نقولا شاوي لا يعني الا ابتعاداً عن الموضوع المحدد وتهرباً من اعطاء رأي حاسم فيه .

وطوال هذه الفترة القلقة كانت انبـــاء انتصارات الجيش الاحمر تغطي صفحتي الجريدة .

وعقد المجلس النيابي اللبناني اول جلسة في دورته العـــادية بتاريخ ٢٠/١٠/١٩٤٣ فانتخب صبري حمادة رئيساً له . وابتدأت الحكومة اللبنانية بالاتفاق مع الحكومة السورية تطالب باستلام المصالح المشتركة وعلى رأسها مصلحة الجمارك والتي كانت فرنسا تديرها حتى ذلك الوقت .

وخلال الاسبوعين التاليين اللذين كانا احرج ايام لبنان ، بقيت الصفحة الأولى من جريدة صوت الشعب مغطاة باخبار الجيش الاحمر والمقالات الروسية عن السياسة السوفياتية واجتماع وزراء خارجية روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة في موسكو ، اما الصفحة الثانية المخصصة للاخبار الداخلية وتتمات الصفحة الاولى فقد حملت اخباراً هذه بعض مواضيعها : « منحة شهر للموظفين » « الازدحام في حافلات الترام » ، « الاسعار الفاحشة في اسواق بيروت » .

وفي العدد ٦٦٠ تاريخ ١٩٤٣/١١/٧ نشرت نص بلاغ لجنة التحرر الوطني الفرنسية الذي كلفت المندوبية الفرنسية العامة في بيروت باذاعته فوزعته على الصحف في اليوم السابق . وتنكر فرنسا الحرة في هذا البلاغ حق لبنان في تعديل دستوره منفرداً ، وتقول ان التعديل لا يصبح نافذاً الا اذا وافق عليه ممثل فرنسا. ونشرت صوت الشعب ايضاً مع هذا البلاغ رد الحكومة اللبنانية الفوري والذي يؤكد فيه حق لبنان في اجراء مثل هذا التعديل .

وبدا للجميع بعد بيان فرنسا ، ان لبنان مقدم على ازمة خطيرة قد تطيح باستقلاله الحديث قبل ان يهنأ به . ولكن صوت الشعب كانت بعيدة عن الشعب ، فلم تعلق على الحدث بشيء بل راحت تتكلم في صفحتها الداخلية عن « ضرورة اصلاح مجاري المياه في الشوارع . »

وفي العدد التالي رقم ٦٦١ تاريخ ٧ و ٨ تشرين الثاني

(نوفمبر) ١٩٤٣ اوردت في الانباء المحلية فقرة مقتضبة عن اهتمام النواب بالخلاف ، واستجواب النائب جورج عقل الذي يستشم منه عدم الموافقة على تصرفات الحكومة .

وفي هذه الاثناء كانت الصحف الوطنية تعطل واحدة بعد الاخرى ، والازمة تشتد وتحتد . وفي العدد ٦٦٢ من جريدة صوت الشعب الصادرة في بيروت بتاريخ ١٠/١١/ ١٩٤٣ كانت المقالات عن ستالين وتقريره في ذكرى ثورة اكتوبر والحالة في روسيا طاغية على اخبار ازمة الاستقلال في لبنان. واكتفى فرج الله الحلو بتعليق مقتضب في الصفحة الداخليـــة كتبه دون توقيع وادعاه لنفسه في العدد ٦٧٦ تاريخ ١٥/١٢/١٩٤٣ . وكان هذا التعليق بعنوان : « كلمة حول الموقف الحاضر » وقال فيه :

« ... ولقد كنا ولا نزال من المعتقدين ان الشعب اللبناني لا يصبو الى اضعاف علاقاته بالشعب الفرنسي . وان من هـــذه العلاقات ما يتعذر فصمه وقطعه تبعاً لرغبات هذا او ذاك من الناس ما دام متفقاً ورغبات الشعب ومصلحة البـــلاد ... ان فرنسا ستكون بعد هذه الحرب غير ما كانت قبلها... وكل وطني بصير يرى منذ الآن ان مصلحة لبنان ، عنـدما يحين له وقت اجراء العقود الدولية ، ان يتجه نحو الشعب الفرنسي لا ان ينصرف عنه ، وان يسعى لتقوية علاقات الصداقة معه لا الى اضعافها ...»

وهنا ايضاً يبرز تردد سياسة الحزب الشيوعي وعدم وضوحها ومداورتها وابتعادهـــا عن اعطاء رأي حاسم فيما يختص بمشكلة البـــلاد الكبرى . انهـا لا تزال تسير على المخطط نفسه الذي

سارت عليه منذ عام ١٩٣٩ وهو امساك الفرنسيين واللبنانيين والسوريين معاً .

وفي ذلك اليوم وصل هللو الى بيروت قادماً من الجزائر ، وتنفجر الازمة عندما يأمر باعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة وجميع من طالتهم يده من النواب والسياسيين. فاضربت بيروت والمدن اللبنانية كلها ، وعطل المندوب الفرنسي الدستور وعين السيد اميل اده رئيساً للحكومة . ولكن الاضرابات استمرت ووقعت اشتباكات في بشامون بين اللبنانيين والجنود الفرنسيين ، وتجاوبت البلاد العربية كلها مع لبنان . وضغط العالم على فرنسا ، فتراجعت عن موقفها واقالت هللو وارسلت الجنرال كاترو ليصلح الوضع فاعاد كل شيء الى ما كان عليه واقر المجلس النيابي اللبناني بحق تعديل الدستور فعدل وتغير شكل العلم .

وتوقفت صوت الشعب من تاريخ ١٠/١١/١٩٤٣ ليعود العدد ٦٦٣ منها للصدور بتاريخ ٢٦ / ١١ / ١٩٤٣ بعد انتهاء الازمة حاملًا على الصفحة الأولى مظاهر الفرح والابتهاج . ونقل هذا العدد ايضاً نص المذكرة التي قدمها فرج الله الحلو الى الجنرال كاترو فور وصوله الى بيروت يشدد فيها على صداقة لبنان للشعب الفرنسي ويطالب باطلاق سراح المعتقلين واعادة الحياة الدستورية والغاء التدابير الاستثنائية وابعاد العناصر الرجعية الفيشية من لبنان.وتاريخ المذكرة ١٥/١١/١٩٤٣.واطلق سراح المعتقلين بتاريخ ٢٢/١١/٤٣ فنظم الشيوعيون في اليوم التالي

مظاهرة ابتهاج ، وابتدأت صوت الشعب تتبنى المواقف الوطنية .

ولعل الظاهرة البارزة في التصرفات الشيوعية خلال هذا الشهر الحاسم ، هي الانقلاب المفاجيء في موقف الحزب من الترقب والانتظار الى التأييد المتحمس للحكومة والمطالب الوطنية . وهذا الانقلاب ليس في الحقيقة الا مثلًا واضحاً على العقلية الشيوعية الانتهازية ، التي تعمل على تغطية مواقفها السابقة بتبني الاوضاع التي كانت تتردد في تأييدها من قبل. وغالباً ما يستطيع الشيوعيون بفضل التركيز الاذاعي ، والظهور المفاجيء العنيف والمسرحي احياناً ، ان يستروا مواقفهم السابقة ويحولوا الانظار ويركزوا انتباه الجماهير على مواقفهم الحاضرة ، فيزدادون بذلك شعبية وقوة .

المؤتمر الوطني للحزب

كان الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، قد دعا بعد الانتخابات النيابية في سورية ولبنان لعقد مؤتمر عام له في تشرين الثاني ١٩٤٣ . غير ان الاحداث السياسية التي حصلت في لبنان اضطرته لأن يؤجل موعد المؤتمر ويحدده باليوم الاخير من عام ١٩٤٣ واليومين الأولين من عام ١٩٤٤ .

وهذا المؤتمر ليس المؤتمر الأول للحزب الشيوعي ، فقد ذكرنا سابقاً عقد مؤتمر أول عام ١٩٢٥ وذكرنا اسماء عدد من اعضاء اللجنة المركزية التي انتخبت يومذاك . غير ان الحزب الشيوعي عام ١٩٤٣ لم يذكر شيئاً عن مؤتمره الأول ، وان

كان لم يغفله تماماً . ومع انه لم يدعُ مؤتمره هذا بالمؤتمر الثاني الا أنه لم يقل عنه انه المؤتمر الاول ، واكتفى بأن قال انه « اول مؤتمر علني يعقده الحزب الشيوعي » (صوت الشعب العدد ٦٨٧ تاريخ ٢ / ١ / ١٩٤٤) ودعاه رسمياً « المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان المنعقد في بيروت بتاريخ ٣١ كانون الاول ١٩٤٣ و ١ و ٢ كانون الثاني ١٩٤٤ . »

واستطاع الشيوعيون ان يحصلوا على اذن رسمي بعقد المؤتمر في مدرسة المصيطبة الرسمية في بيروت . ولعل هذا وحده كاف للتدليل على مدى العطف الذي كان الحزب الشيوعي يلاقيه من بعض الرسميين . وقد زينت القاعة الكبرى في المدرسة بالاعلام السورية واللبنانية ورفعت فيها صورتان كبيرتان لخالد بكداش وفرج الله الحلو ، وعلقت في اطرافها كلمات لهما وشعارات من اقوالهما . أما الشعار الرئيسي للمؤتمر فكان : « وطن حر وشعب سعيد . » وخصص في القاعة مكان للمدعوين .

ومنذ الساعة التاسعة من صباح الجمعة ٣١ / ١٢ / ٤٣ ابتدأت الوفود تصل الى المدرسة وكان بين الوفود الكبيرة وفد دمشق ، ووفد بيروت ووفد طرابلس ، بالاضافة الى وفود حمص وحلب ومرجعيون ومناطق جبل لبنان الاخرى . وقد بلغ عدد المندوبين (١٨٠) مندوباً .

وفي الساعة العاشرة دخل قادة الحزب وبينهم خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا شاوي ، واخذوا مقاعدهم . ثم وقف نقولا شاوي وافتتح المؤتمر معلناً اعتبار اللجنة المركزية منحلة

منذ ساعة انعقـــاد المؤتمر واقترح تأليف مكتب موقت لادارة اعمال المؤتمر يتألف من خمسة عشر مندوباً يمثلون المناطق الحزبية الرئيسية وعلى رأسهم خالد بكداش وفرج‌الله الحلو ورشاد عيسى ونقولا شاوي فقبل الاقتراح بالاجماع . وعند ذلك صعد اعضاء المكتب الموقت المعينون الى المنصة وابتدأ المؤتمر اعماله .

وكانت الكلمة الاولى لمصطفى العريس رئيس منظمة بيروت . ثم تلاه فوزي الشلق مندوب دمشق فاقترح ارسال برقيـة تأييد للشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية وبعد ان تلا نص البرقية قبلت بالاجماع . وعنـــد ذلك نهض يوسف خطار الحلو مندوب بلاد جبيل فاقترح ارسال برقية مماثلة الى السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية، وبعد ان تلا نصها قبلت بالاجماع.

وبعد ذلك وقف خالد بكداش وسط تصفيق حاد فتلا التقرير السياسي عن نشاط اللجنة المركزية وسياسة الحزب وميثاقه الوطني ويقع هذا التقرير في حوالي مئة صفحة استعرض فيه حل الامميـة الشيوعية واثره على الاحزاب الشيوعيـــة ، والوضع الدولي وانتصارات الاتحاد السوفياتي ، والوضع الداخلي والحركة الوطنية وانتصاراتها ، واضطهاد الشيوعيين المتلاحق منذ ١٩٢٥، وموقف الحزب الشيوعي من الدول الحليفة والاتحاد السوفياتي، وضرورة اقامة علاقات ودية مع الاتحاد السوفياتي لضمان استقلال بلادنا . وبانتهاء هذا التقرير انتهت الجلسة الاولى للمؤتمر .

وفي الجلسة الثانية انتخبت لجان المؤتمر ، وفي الجلسة الثالثـة وقف عبدالقادر اسماعيل ، النائب العراقي السابق ومنـــدوب

دمشق ، واقترح ارسال برقية الى ستالين وتشرشل وروزفلت وديغول وتلا نصها فاقرت بالاجماع . وتبعه فرج الله الحلو فقدم التقرير التنظيمي . وبعـــد ذلك تلا رشاد عيسى الصيغة النهائية لمشروع الميثاق الوطني للحزب الشيوعي السوري كما اقرته اللجنة السياسية فوافق عليه المؤتمرون بالاجماع . كما تلا نقولا شاوي الصيغة النهائية لمشروع الميثاق الوطني للحزب الشيوعي اللبناني كما اقرته اللجنة السياسية فوافق عليه المؤتمرون بالاجمـــاع . وعاد رشاد عيسى فاقترح اعضاء اللجنـــة المركزية الجديدة ومنهم : خالد بكداش ، فرج الله الحلو ، نقولا شاوي ، رشاد عيسى ، مصطفى العريس ، يوسف خطار الحلو ، ماير مسعد ، عبدالقادر اسماعيل وغيرهم فوافق المؤتمرون بالاجماع .

واخيراً اختتم خالد بكداش المؤتمر بكلمة منه .

ومما يجدر ذكره ان السيد حبيب ابي شهلا نائب رئيس الوزارة اللبنانية ونائب بيروت ، ارسل يوم الجمعة يعتذر لعدم تمكنه من الحضور برسالة خطية وعاد فحضر يوم الاحـــد واستقبل بحفاوة بالغة ، كما ان عدداً من المثقفين ، بينهم عمر فاخوري ويوسف يزبك ورئيف خوري ارسلوا كتاب تأييد وتقدير للمؤتمرين .

وبعد ايام من انتهاء المؤتمر اصدرت صوت الشعب عدداً ممتازاً يحوي وثائق المؤتمر وهو العدد ٦٨٩ تاريخ ١٩٤٤/١/٧ ، وفيه عدا القرارات الرسمية مقاطع من اهم الخطب التي القيت .

وهذه هي مواضيع القرارات الرسمية المتخذة في المؤتمر :

١ ـ المصادقة على قرار اللجنـة المركزية للحزب الشيوعي في

سورية ولبنان الصادر بتاريخ ٢٧ ايار ١٩٤٣ بالموافقة على « حل الاممية الشيوعية كمركز قيادي لحركة العمال الاممية وبجعل فروع الاممية الشيوعية في حل من الواجبات التي تقتضيها قوانين وقرارات الاممية الشيوعية . »

٢ ـ تسمية الحزب الشيوعي في سوريا الحزب الشيوعي السوري ، وفي لبنان الحزب الشيوعي اللبناني .

علم الحزب الشيوعي اللبناني ونشيده هما علم لبنان ونشيده الوطني .

علم الحزب الشيوعي السوري ونشيده هما علم سوريا ونشيدها الوطني .

سكرتير الحزب الشيوعي السوري يدعى رئيس الحزب الشيوعي السوري .

سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني يدعى رئيس الحزب الشيوعي اللبناني .

وتوصية اللجنة المركزية بوضع منهاج سياسي لكل من الحزبين .

٣ ـ الموافقة على تقرير اللجنة المركزية الذي قدمه الرفيق خالد بكداش عن نشاط اللجنة المركزية وعن سياسة الحزب الشيوعي وميثاقه الوطني .

٤ ـ توصية اللجنة المركزية للحزب بان تهتم بالثقافة السياسية لاعضاء الحزب وان تبحث مسألة تأليف لجنة خاصة للثقافة تحت اشراف اللجنة المركزية .

٥ ـ الموافقة على تقرير الرفيق فرج الله الحلو عن شؤون

الحزب التنظيمية والتعديلات المقترح ادخالها على نظامه الداخلي .
٦ ـ الموافقة على سياسة الحزب المالية ودعوة جميع الشيوعيين الى مضاعفة جهودهم لتعزيز مالية الحزب وزيادة موارده .
ويمكننا ان نميز في هذه المقررات الاتجاهات التالية :
اولاً : محاولة اعطـــاء الحزب الشيوعي في كل من سورية ولبنان صبغة وطنيـــة تتفق مع الوضع الجديد الناشيء عن حل الكومنترن .
ثانياً : ابقاء وحدة الحزبين متمثلة في اللجنة المركزية الواحدة.
ثالثاً : ابقاء وحدة التوجيه الثقافي وحصره باللجنة المركزية ، والتوصية بالاهتمام به والعناية بشؤونه .
رابعاً : وضوح اشراف الحزب الشيوعي في سورية ولبنان على الحزب الشيوعي في العراق بابراز عبدالقادر اسماعيل وضمه للجنة المركزية .
أما الميثاق الوطني الذي اقره المؤتمر فهو اول منهاج معلن للحزب الشيوعي في سورية ولبنان ويؤلف المبادىء التي سوف يقبل الاعضاء الجدد على اساسها . وهذا هو بنصه الحرفي :

الميثاق الوطني للحزب الشيوعي السوري :

اقره المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي بالاجماع في أول كانون الثاني ١٩٤٤

١ ـ استقلال سورية وسيادتها التامة وتحررها الوطني الكامل.
٢ ـ نظام جمهوري ديموقراطي صحيح .
٣ ـ توثيق صلات التضامن الوطني بين الشعوب العربيـــة

لتحقيق تحررها الوطني الكامل .

٤ ـ توطيد الروابط الاقتصادية والثقافية بين سوريا وجميع الاقطار العربية الشقيقة .

٥ ـ بسط السيادة الوطنية على المؤسسات المالية والصناعية والتجارية الاجنبية .

٦ ـ المساواة بين جميع السوريين على اختلاف اديانهم وعناصرهم وتمتين روابط الاخاء والتضامن بينهم .

٧ـ تأمين الحريات الديموقراطية العامة والفردية وفي مقدمتها حرية الضمير والكلام والصحافة والنشر والاجتماع والجمعيات والاحزاب والنقابات وحرية العبادة واحترام عقائد الناس الدينية.

٨ ـ تنظيم شؤون الادارة والقضاء بروح ديموقراطية صحيحة والسهر على تسهيل مصالح المواطنين ونشر العدل بين الجميع .

٩ ـ تربية النشء تربية وطنية والاهتمام بالرياضة البدنية وتشجيعها ونشر الثقافة في البلاد واحياء التراث الفكري العربي .

١٠ ـ تعزيز مكانة رجال الفكر والعلم والفن وحماية الاساتذة والمعلمين .

١١ ـ تعميم المدارس في المدن والقرى وجعل التعليم الابتدائي مجانياً اجبارياً .

١٢ ـ العناية بالصحة العامة وضمانة المعالجة والمداواة مجاناً للمواطنين المعوزين .

١٣ ـ حماية العائلة السورية من اخطار البؤس والجهل ورفع مستوى المرأة والعناية بصحة الام والطفل .

١٤ - رفع مستوى البلاد الاقتصادي وتنشيط التجارة وترقية الزراعة وتعميم مشاريع الري وحماية المشاريع الصناعية الوطنية وتشجيعها وتحسين المواصلات بين المدينة والقرية .

١٥ - حماية صغار المنتجين في المدينة والقرية ومساعدتهم .

١٦ - معالجة البطالة ومكافحة البؤس والفقر وتأمين معيشة الشعب .

١٧ - حماية العمال بوضع تشريع للعمل يحفظ حقوقهم ويسوي العلاقات بينهم وبين أصحاب العمل على اساس العدل والمصلحة الوطنية .

١٨ - تحرير الفلاح السوري من التأخر والبؤس والجهل .

١٩ - رفع مستوى الموظفين والمستخدمين وتعزيز شأن المهن الحرة .

٢٠ - توزيع الضرائب توزيعاً عادلاً بين المكلفين وتخفيف العبء عن صغار التجار وصغار المنتجين بوجه عام .

ويتألف الميثاق الوطني للحزب الشيوعي اللبناني من ١٩ مادة حيث دمجت المواد ٣ و ٤ من الميثاق السوري في مادة واحدة ، واضيفت اليه او حذفت منه بعض الكلمات دون اي تبديل في الفكرة الاساسية . وكثير من مواده تتوافق بنصها الحرفي مع الميثاق السوري .

وقد كرس خالد بكداش في تقريره فقرة طويلة لهذا الميثاق دارت في معظمها حول معنى الاشتراكية وتطبيقها . فهذا الميثاق كما هو واضح بعيد كل البعد عن الدعوة الاشتراكية التي قامت

عليها الحركة الشيوعية ، لا في سورية ولبنان فقط بل في العالم كله ايضاً . انه كما قال خالد بكداش في خطاب الباريزيانا « منهاج ديموقراطي معتدل » . ويمكننا ان نضيف انه « بورجوازي » الى حد كبير . فهو لم يتعرض مثلاً لمشكلة الاقطاع وما تتركه في البلاد من آثار سيئة ، ولم يتعرض لمشكلة ازدياد الاستقطاب المالي في البلاد وما يمكن ان يؤدي اليه من احتكار لرأس المال ومن ضمنه لوسائل الانتاج ، ولم يتعرض للملكية وسائل الانتاج او لتوزيع الاراضي على الفلاحين ، وهي كلها من المشاكل التي عالجها الشيوعيون الاوائل وشددوا عليها .

ولقد احس بكداش بهذا التراجع المبدئي في الميثاق الوطني فبرره بان الاشتراكية ليست نظرية تفرض فرضاً بل ان تطبيقها امر يتعلق بظروف كل بلد من البلدان . ولما كانت سوريا ولبنان غير مهيئين من جميع الوجود لتطبيق الاشتراكية ، لذلك كان لا بد من اعتماد منهج يتوافق مع حاجات البلدين الوقتية .

غير ان الحقيقة التي لم يعلنها خالد بكداش ، والكامنة خلف هذا التساهل ، هي ان الشيوعيين قد قرروا ، خاصة بعد حل الكومنترن ، ان يبتعدوا عن كل ما ينفر الناس منهم ويبعدهم عنهم ، وان لا يظهروا لمواطنيهم الا مـا تسهل الموافقة عليه والاجماع حوله .

واذا دققنا في قرارات المؤتمر الوطني ، وجدناه يوصي بالتشدد في امر الثقافة السياسية للاعضاء ، وهذا يعني اخذ المواطن الذي قبل ان يدخل الحزب الشيوعي على اساس ميثاق الحد الادنى ،

والبدء بتثقيفه ثقافة ماركسية – لينينية – ستالينية لايصاله الى الايمان الكلي المطلق بالنظرة الشيوعية وجميع تطبيقاتها ومتفرعاتها ومستلزماتهـا .

ان هـذا التراجع ليس الا تراجعاً ظاهرياً . ولعله الشرك المنصوب عن قصد لاصطياد الاعضاء وانتقاء المناضلين .

اما النظام الداخلي الجديد الذي اقره المؤتمر ، فهـذا هو بنصه الحرفي :

١ – تسمية الحزب

المادة الاولى – ان الحزب الشيوعي في لبنان (او في سوريا) يدعى الحزب الشيوعي اللبناني (او السوري)

٢ – الاعضاء

المادة ٢ – لكل مواطن لبناني (او سوري) حق الدخول في الحزب الشيوعي اللبناني (او السوري) .

المادة ٣ – يمكن ان يكون عضواً في الحزب كل من يقر ميثاقه الوطني وينتمي الى احدى منظماته ويقدم للحزب مساعدة مادية قدر طاقته .

٣ – بناء الحزب

المادة ٤ – تتألف هيئات القيادة في الحزب على مختلف الدرجات بطريقة الانتخاب .

المادة ٥ – تقدم هيئات القيادة بصورة دورية تقـارير عن اعمالها امام ناخبيها ، كما تقدم تقارير للهيئات العليا بصورة دورية

او عندما يطلب منها ذلك .

المادة ٦ - القرارات التي تتخذها الهيئات العليا في الحزب تسري على جميع منظماته واعضائه .

المادة ٧ ـ حرية المناقشة مضمونة في الاجتماعات لجميع اعضاء الحزب ، حول المسائل التي تثير اختلاف الاراء ، الى حين اتخاذ قرار بشأنها . والقرار المتخذ بالاكثرية يكون نافذاً على الجميع .

المادة ٨ ـ في حالات معينة يعود تقديرها للجنة المركزية يقبل مبدأ تعيين هيئات القيادة في الحزب من قبل الهيئات العليا ، كما يقبل ايضاً ضم اعضاء جدد اليها ، بموافقة الهيئات ذات الصلاحية في الحزب .

المادة ٩ ـ لكل منظمة حزبية حق القيام بما تراه موافقاً من الاعمال في القضايا المحلية ، ضمن سياسة الحزب وقراراته .

٤ ـ الفرقة

المادة ١٠ ـ اعضاء الحزب في الحي او في القرية يؤلفون فرقة حزبية . وتنتخب الفرقة من اعضائها اميناً للسر او مكتباً حسب الحاجة .

المادة ١١ ـ تقوم الفرقة بجميع الاعمال الحزبية ، ضمن نطاق الميثاق الوطني للحزب فتعمل لايضاح خطة الحزب السياسية ، ونشر ميثاقه الوطني وشرحه ، وتحقيق الاتحاد حوله ، وتدافع عن مطالب السكان .

٥ ـ لجنة المنطقة

المادة ١٢ ـ مندوبو فرق الحزب في المنطقة ينتخبون لجنة

المنطقة ، وهي تنتخب لها ، بالاتفاق مع اللجنة المركزية ، اميناً للسر او مكتباً .

المادة ١٣ – تدير لجنة المنطقة جميع اعمال الحزب في المنطقة وتكون مسؤولة أمام اجتماع مندوبي المنطقة وأمام اللجنة المركزية .

٦ – مؤتمر الحزب

المادة ١٤ – مؤتمر الحزب هو اعلى هيئة في الحزب . وهو ينعقد مبدئياً كل سنتين بدعوة من اللجنة المركزية . ويعلن جدول اعماله على الاعضاء قبل شهر على الأقل من موعد انعقاده . وللمؤتمر حق اتخاذ القرارات اذا كان نصف اعضاء الحزب على الاقل ممثلين فيه .

المادة ١٥ – يستمع المؤتمر الى تقارير اللجنة المركزية ويبت بشأن المسائل المتعلقة ببرنامج الحزب . ويتخذ القرارات في المسائل السياسية والخططية والتنظيمية وينتخب اللجنة المركزية.

المادة ١٦ – يتألف مؤتمر الحزب في الاساس من المندوبين المنتخبين في اجتماعات مندوبي المناطق او من ممثلي الفرق المستقلة (التابعة رأساً للجنة المركزية) .

المادة ١٧ – اذا كانت الظروف لا تسمح باجراء انتخاب المندوبين للمؤتمر ، فبامكان اللجنة المركزية تعيين المندوبين بالاتفاق مع اللجان المنطقية .

٧ – اللجنة المركزية

المادة ١٨ – اللجنة المركزية هي اعلى هيئة للحزب في اثناء

المدة الفاصلة بين مؤتمرين . فهي تمثل الحزب تجاه كل الهيئات الحزبية وتدير وتقود كل نشاط الحزب السياسي وكل اعماله التنظيمية وتعين محرري صحافة الحزب وتقود جميع المشاريع الحزبية ، وتوزع القوى ، وتدير المالية ، ويحدد مؤتمر الحزب عدد اعضائها .

المادة ١٩ ـ تنتخب اللجنة المركزية من اعضائها مكتب الرئاسة المكلف بتأمين سير الاعمال اليومية .

المادة ٢٠ ـ اللجنة المركزية تقسم المنظمات الحزبية الموجودة الى مناطق وتعين حدودها حسب الضرورات ، ومن حقها وحدها تعديل هذه التقسيمات .

٨ ـ المالية

المادية ٢١ ـ تتكون الواردات المالية لمنظمات الحزب من اشتراكات الاعضاء والتبرعات والمشاريع الحزبية المختلفة .

هذا النظام الداخلي هو اول نظام معلن للحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، ولذلك فمن الصعب اجراء مقارنة مسندة له مع النظام السابق ، غير ان دراسة هذا النظام نفسه يمكنها ان تعطينا فكرة اولية عما كان يجري من قبل .

يلاحظ في هذا النظام تشديد كلي على ان جميع قيادات الحزب منتخبة من قبل الاعضاء بيد انه قيد هذا الاطلاق بحالات معينة تقوم اللجنة المركزية فيها بتعيين المسؤولين مباشرة . وهذا يعني ان النظام السابق كان في مجمله نظاماً غير انتخابي ، وان

الطور الجديد الوطني للحزب هو الذي فرض ابراز الانتخاب تدليلاً على اتباع الحزب سياسة ديموقراطية ، لا في ميثاقه الوطني فقط ، بل وفي تركيبه النظامي ايضاً .

اما صلاحيات اللجنة المركزية فلا نظن انها تبدلت كثيراً بل بقيت على حالها توجه الحزب توجيهاً كلياً وخاصة سلطات مكتب رئاسة الحزب (البريزيديوم) الذي يشرف بالفعل على الشؤون اليومية والمستمرة من اعمال الحزب .

هذه أهم مواضيع هذا المؤتمر الوحيد الذي عقده الحزب الشيوعي في سورية ولبنان خلال فترات حياته الحديثة. ومع ان النظام الداخلي للحزب نص على وجوب عقد المؤتمر كل سنتين الا انه لم ينعقد اية مرة بعد ذلك ، على ما هو معروف . ولا يمكن للحزب ان يقول ان جو البلاد العام لم يكن يسمح بعقده ، بل على العكس ، فان الحزب الشيوعي كان في اواخر عام ١٩٤٥ وأوائل عام ١٩٤٦ في وضع يكاد لا يختلف عن وضعه عام١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ . كما انه مر في الجمهورية السورية خلال اعوام ١٩٥٤ ـ ١٩٥٧ بأوضاع ممتازة كان بامكانه ان يعقد فيها اي مؤتمر يريد ، ومع ذلك فان المؤتمر لم ينعقد . وقد اتهم عدد من الشيوعيين الثائرين خالد بكداش بالتفرد والسيطرة على الحزب واستندوا في ذلك الى هذه النقطة بين عدة نقاط اخرى . (الياس مرقص ومحمد علي الزرقا ـ جريدة الصحافة البيروتية العدد ٥٣ تاريخ ١٣ / ١ / ١٩٥٩) .

وكان هذا المؤتمر ، من الناحية الثانية ، نقطة انطلاق لحملة

اذاعية واسعة في سورية ولبنان فكتبت جريدة صوت الشعب بعده سلسلة من المقالات تشرح الميثاق الوطني واهدافه ومعظمها مأخوذ من تقرير خالد بكداش الذي قدمه للمؤتمر . كما قام خالد بكداش في الوقت نفسه بزيارات متتالية لمعظم المدن السورية واللبنانية يشرح فيها الميثاق امام حشود كبرى من المواطنين . وكان اهم هذه الاجتماعات تلك التي عقدت في سينما عائدة بالاس في دمشق وتكلم فيه رشاد عيسى وخالد بكداش ، وفي قاعة النورماندي ببيروت وتكلم فيه فرج الله الحلو وخالد بكداش ، وفي طرابلس وتكلم فيه خالد بكداش ، وفي حلب وتكلم فيه خالد بكداش ، وفي قاعة النورماندي ببيروت مرة ثانية وتحدث فيه خالد بكداش عن الميثاق الوطني باللغة الفرنسية .

استقلال الحزبين

ولم يطل الامر باللجنة المركزية الموحدة للحزب الشيوعي في سورية ولبنان ان شعرت بضرورة اتخاذ خطوات اوسع في مضمار استقلال الحزبين . ولم يدعَ المؤتمر العام للحزب لاقرار مثل هذه الخطوة الهامة بل اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان يوم الاحد الواقع في ٢٣ تموز ١٩٤٤ بحضور ١١٨ مندوباً عن منظمات الحزب الرئيسية في البلدين « يمثلون عشرة آلاف شيوعي منظم » . ومن الطبيعي ان هذا الاجتماع ، مهما حضره من المندوبين لا يقوم دستورياً مقام المؤتمر ولا يغني عنه . ونذكر هنا ان اللجنة المركزية دأبت على عقد مثل هذه الاجتماعات

العلنية التي يحضرها عدد غفير من الناس في السنوات التالية .

وفي هذا الاجتماع تكلم كل من خالد بكداش عن « نضالنا الوطني والفاشستية » ، وفرج الله الحلو عن « مطالب الشعب الاقتصادية » ، ورشاد عيسى عن « ملاحظات تنظيمية »، ونقولا شاوي عن « استقلال الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني . » .

ونقلت صوت الشعب وقائع هذا الاجتماع في العدد ٨١٣ تاريخ ١٩٤٤/٧/٢٦ . وفي هذا الاجتماع اتخذت اللجنة المركزية قراراً باستقلال الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني احدهما عن الآخر، ادارياً وسياسياً ومالياً . وهذا هو نص القرار :

«وفقاً لتطور الاحوال السياسية في سورية ولبنان ، ومتابعة للسياسة المستمدة من روح القرارات التي اتخذها المؤتمر الوطني للحزب المنعقد في ٣١ كانون اول سنة ١٩٤٣ و ١ و ٢ كانون الثاني سنة ١٩٤٤ المتعلقة بعمل الحزبين في سوريا ولبنان ... يؤلف كل من الحزبين لجنة مركزية مستقلة وجهاز قيادة خاصاً به .

« تؤلف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري من الاعضاء السوريين في اللجنة المركزية التي انتخبها المؤتمر الوطني ، وتؤلف اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني من الاعضاء اللبنانيين في اللجنة المركزية التي انتخبها المؤتمر الوطني .

« تقوم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري بقيادة سياسة الحزب الشيوعي السوري وبادارة شؤونه التنظيمية والمالية بصورة مستقلة كل الاستقلال ... (ويتلو نص مماثل عن الحزب

الشيوعي اللبناني) .

« يتعاون الحزبان في الشؤون السياسية التي تقتضيها مصلحة البلدين وشؤونها المشتركة، وفي المسائل الحزبية التي تقتضيها مصلحة الحزبين وذلك بواسطة اجتماعات دورية بين ممثلي هيئتي القيادة في الحزبين .

« تشرف على السياسة العامة للجريدة لجنة مشتركة على اساس متساوٍ تعين اعضاءها هيئتا القيادة في كلا الحزبين الى ان يصبح للحزب الشيوعي السوري جريدة خاصة به ، وتنتدب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري خلال هذه المدة ممثلاً لها في جهاز تحرير الجريدة للمساهمة في اعمالها بصورة دائمة .

« كل عضو في الحزب الشيوعي السوري يقيم في الاراضي اللبنانية يكون عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني . (والعكس بالعكس) .

« تعرض هذه القرارات لتصديقها على اول مؤتمرين يعقدهما الحزبان . »

ومنذ تلك الفترة ابتدأ الحزبان يصدران، في المناسبات الهامة بيانات مشتركة بينهما ، غالباً ما كانت توقع باسم خالد بكداش وفرج الله الحلو .

ازمة استلام الجيش والجلاء

بعد ازمة الاستقلال اللبناني في تشرين الثاني ١٩٤٣ ابتدأت الحكومتان تعملان لاستلام جميع الصلاحيات التي كان يمارسها الفرنسيون ، والادارات التي كانت تابعة للمفوضية العليا الفرنسية

مباشرة ، والتي كان بعضها يعرف باسم المصالح المشتركة بين سورية ولبنان . وبالفعل فقد تسلمت الحكومتان اللبنانية والسورية كل هذه المصالح بما فيها مصلحة الجمارك ومصلحة البارود ومصلحة الدفاع السلبي ، وغيرها .

ولكن العقدة الكبرى كانت موضوع الجيش الذي كان يعرف باسم جيش الشرق والذي كان الفرنسيون يشرفون عليه مباشرة . وكان يتألف ، ما عدا الضباط الفرنسيين، من السوريين واللبنانيين فقط .

ووضح منذ عام ١٩٤٤ ان الفرنسيين يترددون في تسليم الجيش للحكومتين وانهم يساومون على هذه المسألة الهامة في محاولة اخيرة للابقاء على شيء من نفوذهم المنهار في البلاد ، كما اتضح من الجهة الثانية ان الحكومتين السورية واللبنانية تترددان ظاهرياً وترفضان ضمنياً قبول اية معاهدة مع فرنسا .

ومنذ اواسط عام ١٩٤٤ كانت الاتصالات التي يقوم بها الجنرال بينه المندوب الفرنسي في سورية ولبنان مع الجانبين السوري واللبناني تتناول صراحة موضوع الجيش . (صوت الشعب العدد ٧٨٠ تاريخ ١٩٤٤/٦/٧)

وعندما عقدت اللجنة المركزية للحزب اجتماعها الكبير بتاريخ ١٩٤٤/٧/٣٣ قال خالد بكداش ، في خطابه عن « نضالنا الوطني والفاشستية » ما يلي في موضوع العلاقات مع الدول الاجنبية :

« اننا ننظر الى العلاقات مع الدول الاجنبية على اساس

وطني محض ، وعلى اساس مستقبل النضال ضد الفاشستية في كل دولة من هذه الدول .

« فنحن مع الشعب الفرنسي في نضاله ضد الفاشستية ، ونحن لذلك وحرصاً على مصلحة شعبنا ، نطالب بتطهير الجهاز الفرنسي في سوريا ولبنان من جميع العناصر الفيشية الهتلرية التي تتجاهل حقوقنا ، وتفكر بان سوريا ولبنان يجب ان يبقيا سوق امتيازات ووظائف ونهب وحكم مطلق .

« ونحن ايضاً مع الشعب الانكليزي في نضاله ضد الهتلرية . ولكن موقف شعبنا من انكلترا في سوريا ولبنان واضح وصريح . انه موقف تجاه دولة حليفة كبرى اوجدتها في بلادنا ضرورات الحرب . وستمضي دون ريب بزوال هذه الضرورات ... ونحن نطالب بان تقوم بين شعبنا والشعب البريطاني علاقات صداقة وود وتفاهم . ولكننا نطالب بتطهير الجهاز الانكليزي في بلادنا من جميع العناصر ذات العقلية الفاشستية الرجعية الاستعمارية .

« ان مرور انكلترا في بلادنا يجب ان لا يترك اثراً سيئاً وذكرى اليمة ... »

هذه الفترة تحدد بوضوح موقف الحزب الشيوعي من امر كان بارزاً يومذاك هو النزاع الاستعماري بين انكلترا وفرنسا على سورية ولبنان . ونلاحظ هنا فرقاً جوهرياً عند الشيوعيين في النظرة الى وجود كل من الدولتين في بلادنا . فوجود انكلترا هو وجود طارىء يزول حتماً بزوال مسبباته اي بزوال ظروف الحرب التي اقتضت هذا الوجود ، اما وجود فرنسا فليس كذلك

ابداً ، انه وجود يجب ان ينسق ويعترف به وينظم على اساس تعاقد جديد منبثق من الافكار الجديـــدة التي ابتدأت تسيطر على العالم .

ومع ان بكداش لم يذكر التعاقد مع فرنسا بشكل صريح في هذا الخطاب الا انه ردده ، هو وغيره من قادة الحزب مراراً وتكراراً في الاشهر التالية .

يقول البيان المشترك الصادر عن الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني بعد اجتماع لهما عقـد بتاريخ ١٩٤٤/١١/٢٣ ، ونشر في صوت الشعب ، العدد ٨٨٩ تاريخ ١٠ و ١١ / ١٢ / ١٩٤٤ :

« ... ان كل اتفاق ينتقص من حق سوريا ولبنان في السيادة والاستقلال ... هو امر ينافي ارادة الشعبين السوري واللبناني ويناقض مبادىء الحرية ومساواة الامم ...

«ان كل اتفاق دولي يعقد باسم سوريا ولبنان يجب ان يكون قائماً على أساس تخلي الجانب الآخر عن كل سيطرة استعمارية وعن كل امتياز استعماري ...

« واذا كانت فرنسا تريد ان تقوم بينها وبين بلادنا علاقات صداقـــة وتحالف فيجب ان تبرهن السياسة الفرنسية في سوريا ولبنان بصورة عملية انهـــا قد تخلت عن العقلية (الاستعمارية) القديمة من اساسها ، ونبذت الروح والأساليب الفاشستية نبذاً تاماً فتعالج مسألة العلاقات مع بلادنا بروح جديدة ، كعلاقات اقطار مستقلة متساوية في الحقوق ، فلا يكون ما تدور حوله الأبحاث من اتفاق او معاهدة شكلاً جديداً للاستعمار ...»

وفي الاجتماع الذي عقدته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري في دمشق يوم الجمعة ١٩٤٤/١٢/٨ أمام عدد كبير من الوفود ونقلت وقائعه صوت الشعب العدد ٨٩١ تاريخ ١٩٤٤/١٢/١٥ تكلم خالد بكداش عن سياسة الحزب الخارجية فقال ما يلي :

« كلما كانت السياسة الوطنية اوضح في ديموقراطيتها وقربها للشعب السوري ، كلما كان المجال ارحب لحل مشكلة هامة من مشاكلنا وهي مشكلة العلاقات السورية الفرنسية ...

«... نحن لسنا مبدئياً ضد عقد اتفاق او معاهدة مع فرنسا . ولكننا نريد من الجانب الفرنسي ان ينهج نحو بلادنا سياسة توحي الثقة والاطمئنان... » ثم طالب بابعاد العناصر الفاشستية الفرنسية جميعها « هؤلاء الذين يشوهون سمعة الشعب الفرنسي ويحجبون وجه المنير الشعبي الجديد » (مراقبة) ثم قال « اننا لا نريد معاهدة تكون غطاء جديداً للاستعمار . »

أما وصفي البني عضو اللجنة المركزية السورية فقال في افتتاحية له في العدد ٩٠٩ تاريخ ١٤ و ١٥ / ١ / ١٩٤٥ من جريدة صوت الشعب تعليقاً على تصريحات للسيد جميل مردم :

« ان حزبنا الشيوعي السوري قد اوضح موقفه من هذه القضية بجلاء ووضوح في آخر اجتماع عقدته لجنته المركزية ، فأعلن صراحة ان سوريا تريد معاهدة لا تكون غطاء لسيادة استعمارية وأطماع استثمارية فاشستية ، بل تكون صك صداقة وتحالف بين الشعبين السوري والفرنسي ... »

وفي الوقت نفسه يقول فرج الله الحلو في خطابه الذي القاه في

قاعة الروكسي في بيروت اثناء الاحتفال بذكرى اعلان الميثاق الوطني ، بتاريخ ١٤ / ١ / ١٩٤٥ (صوت الشعب العـــدد ٩١٠ تاريخ ١٦ / ١ / ١٩٤٥) :

« ... ولقد قلنا ايضاً ونعيد القول الآن ان الشعب اللبناني ، لا يرفض مبدئياً عقـد المعاهدات والاتفاقات ولكن يرفض كل محاولة من هذا النوع تكون شكلاً جديداً للاستعمار ، او غطـاء لامتيازات تحد من سيادتنا الوطنية واستقلالنا ، ويكون غرضها ارجاع سيطرة مفقودة وتحكم استعماري بغيض .

« وليس بنا من حاجة الى القول ان الشعب اللبناني لا يكره الشعب الفرنسي ، بل يحترمه ويريد ان تقوم معه علاقات صداقة وتحالف على اساس الاحترام المتبادل والتساوي التام في الحقوق . »

وبعد ذلك يطالب بتطهير الجهاز الفرنسي من العناصر الفيشية .

وبتاريخ ١٩٤٥/٣/٥ عقد اجتماع مشترك للجنتين المركزيتين صدر على اثره بيان عن الحزبين تناول عدداً كبيراً من النقـــاط الخارجية والداخلية (صوت الشعب العدد ٩٤٢ تاريخ ١٩٤٥/٣/٨) ويقول هذا البيان عن العلاقات مع فرنسا .

« ... درس المجتمعون تطور العلاقات اللبنانية ـ السورية ـ الفرنسية فأظهروا ارتياحهم للتحسن البادي فيها ولجو التفاهم الذي نشأ اخيراً ، وأبدوا املهم في ان يستمر هـذا الجو وأن تؤدي المفاوضات الجارية مع الجانب الفرنسي الى تسوية جميع الامور المعلقة والى اقامة الصداقة اللبنانيـــة ـ السورية ـ الفرنسية على امس وطيدة ... ان اللبنانين والسوريين ... يريـدون تسوية

العلاقات مع فرنسا ويرون ان التحالف والصداقة بين الطرفين هما من مصلحة لبنان وسوريا والشعب الفرنسي نفسه ... »

أما الشرط الوحيد لاقامة هذا التحالف فهو اقصاء العناصر الفاشستية الفرنسية من البلدين واتباع سياسة ديموقراطية صحيحة .

وفي اواسط ايار (مايو) ١٩٤٥ بلغت مسألة العلاقات بين فرنسا وسوريا ولبنان مرحلة تأزم خطيرة جداً . فقد عاد الجنرال بينه من فرنسا حاملاً معه شرطاً اساسياً لتسليم الجيش هو عقد معاهدة مع فرنسا . وكانت البلاد كلها تغلي ، والشعب يتحفز والاجتماعات تتوالى بين اركان حكومتي دمشق وبيروت .

وفي هذه اللحظة بالذات يخرج علينا نقولا شاوي بافتتاحية في جريدة صوت الشعب بعنوان « بعد عودة الجنرال بينه ، ما هي الاسس التي تسوى عليها العلاقات بين سوريا ولبنان وفرنسا » (العدد ٩٨٦ تاريخ ١٧ / ٥ / ١٩٤٥) وفيها يقول :

« ... لقد اصبح واضحاً الآن ان الجانب الفرنسي يطلب عقد معاهدة مع سوريا ومعاهدة مع لبنان . وهذا امر لا تعارض فيه البلاد ، لأن من شأنه ان يساعد على ايجاد حالة استقرار داخلي وخارجي في كلا القطرين ، وعلى تصفية جميع القضايا المعلقة بينها وبين فرنسا. ولكن ما هو نوع المعاهدة التي تطلبها الحكومة الفرنسية . هذه هي القضية التي يدور حولها الخلاف ... »

وبعد ذلك يلف ويدور ليكرر النغمة السابقة نفسها .

وطوال هذا العام ، من منتصف ١٩٤٤ حتى اواخر ايار

(مايو) ١٩٤٥ لم يرد موضوع تسلم الجيش اية مرة في جريدة صوت الشعب، لا في المقابلات التي اجراها خالد بكداش واعضاء آخرون من قيادة الحزب مع المسؤولين السوريين ـ سعدالله الجابري ، شكري القوتلي ـ ولا في بيانات الحزب المتكررة التي كانت تصدر مرة واحدة كل شهر تقريباً ، ولا في المطالب التي تقدم بها الحزب الشيوعي السوري من رئيس الجمهورية السورية بعد استقالة وزارة الجابري وتأليف فارس الخوري وزارته الأولى في منتصف تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٤ . بل ان كل هذه المطالب كانت تدور حول كلمات غامضة يمكن ان تفسر على عدة وجوه . مثل « النضال في سبيل الاستقلال التام والحرية الكاملة واخذ الصلاحيات من الافرنسيين . »

وعندما ابتدأت بيروت ودمشق مظاهراتها في اواخر كانون الثاني (يناير) ١٩٤٥ لاستلام الجيش ، اوردت صوت الشعب الموضوع كخبر دون تعليق (العدد ٩١٨ و ٩١٩ تاريخ ١/٣٠/ ١٩٤٥ و١/٣١/١٩٤٥)، وفي العدد ٩٢٠ تاريخ ٢/١/١٩٤٥ اورد مراسل الجريدة في دمشق سطراً واحداً عن الجيش قال فيه وفي معرض مطالب الشعب : « وفي جملتها حقه في ان يكون له جيش وطني لا يخضع ولا يأتمر الا بما توحيه المصلحة الوطنية . » وجاء هذا بعد ان ضجت البلاد بالمطالبة بالجيش ، وبعد ان افتتح البرلمانان السوري واللبناني دورتين استثنائيتين لمتابعة هذا الموضوع الخطير .

غير ان ضغط الاحـــداث وتسارعها وثورة الشعب ونقمته دفعت بالحزبين لأن يعقدا اجتماعاً للجنتين المركزيتين في اواسط نيسان ويصدرا بياناً طويلاً نشرته جريدة صوت الشعب في ثلاثة اعداد متتالية بتاريخ ٢٥ و ٢٦ و ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٤٥ . وفي هذا البيان يؤيد الشيوعيون صراحة ايجاد جيش وطني، دون ان يحددوا كيفية ذلك ودون ان يشيروا الى ضرورة تسليم فرنسا جيش الشرق للبلدين . وهذه النقطة هامة جداً ، لأن انشاء جيش وطني لا يعني حل جيش الشرق وانسحاب الجيوش الاجنبية من البلاد . يقول البيان في هذا الباب :

« ... كل ذلك يجعل وجود جيش وطني امراً حيوياً تقتضيه المصلحة الوطنية ... ان المصلحة الوطنية تقضي بالمباشرة في ايجاد جيش وطني وعلى المسؤولين في لبنان وسوريا ان يزيلوا وان يتجنبوا كل ما من شأنــه ان يضعف حماسة الشعب نحو الجيش الوطني ويجعله في نظر جماهير الشعب مصدر ارهاق واستثمار بدل ان يكون مصدر حماسة وعزة وطنية ... »

ويهاجم البيان بعد ذلك ضريبة الجيش التي فرضت في سورية.

وهكذا يمكننا ان نلخص موقف الحزب الشيوعي من المعاهدة مع فرنسا ومسألة الجيش ، حتى اواخر ايار (مايو) ١٩٤٥ بما يلي:

اولاً : القبول بعقـــد معاهدة مع فرنسا وتحبيذ ذلك مع اشتراط تطهير الجهاز الفرنسي في سورية ولبنـــان من العناصر الفاشستية وربط ذلك باتبـــاع الحكومتين الوطنيتين سياسة ديموقراطية صحيحة . ان مسألة التحالف مع فرنسا ، تبقى عنــد

الشيوعيين مشكلة شكل فقط لا مسألة مبدئية . فلو ان فرنسا اظهرت نيات حسنة ، لفترة ما ، وجلبت موظفين شيوعيين الى اجهزة المندوبية العامة ، لما كان لدى الشيوعيين اي اعتراض على ربط سورية ولبنان بعجلات فرنسا .

ثانياً : عدم ذكر الجيش مباشرة حتى منتصف ايار (مايو) ١٩٤٥ والاكتفاء بكلمات مطاطة غامضة ، مثل تسلم الصلاحيات من فرنسا . والدعوة بعد منتصف ايار لانشاء جيش وطني لا الى تسلم جيش الشرق القائم .

ثالثاً : الضرب المتكرر على وتر التآمر لاحلال استعمار بريطانيا مكان استعمار فرنسا . وليس هذا في الحقيقة الا تشويهاً لوجه النضال الوطني في تلك الفترة العصيبة .

ولا بد لنا هنا من الاشارة الى احتفالات اول ايار (مايو) ١٩٤٥ التي جرت في لبنان وسورية والتي اظهر فيها الشيوعيون قوة كبيرة جداً . فقد اشعلت النيران على جبل قاسيون في دمشق بشكل مطرقة ومنجل وعقد اجتماع ضخم في سينما الامبير ضم الالوف من الناس .

وبعد ايام من هذا الاحتفال اعلن استسلام المانيا فقام الشيوعيون بتنظيم احتفالات ومهرجانات بهذه المناسبة وعلى الاخص في بيروت ودمشق كما تناولت معظم المدن والقرى التي يوجد فيها للشيوعيين اية قوة فعلية . وابتدأت هذه الاحتفالات من يوم ٩ ايار (مايو) ١٩٤٥ والايام التالية . وتجلت في هذه الاحتفالات وفي احتفالات دمشق بصورة خاصة ، الصداقة

الشيوعية ــ الفرنسية لأن الاعلام الفرنسية وصور الجنرال ديغول كانت هي السائـــدة في الاحتفالات الى جانب صور ستالين والاعلام الحمراء .

وبدت هذه التظاهرات الشيوعية تحدياً للرأي العام المتوتر ضد فرنسا . فحصلت بعض الاصطدامات بين الطلاب في مدرسة التجهيز بدمشق ، وخشيت السلطات الوطنية من امتدادهـا الى الشعب فامرت فوراً بالغاء جميع معـــالم الزينة وازالة الاعلام الاجنبية والصور .

ويوم الجمعة ١٩٤٥/٥/١٢ هاجم مجهولون البرلمـان السوري والقوا عليه متفجرة واطلقوا امـــامه عيارات نارية وهربوا ، وعرف فوراً انهم من الاشخـــاص التابعين للسلطة الفرنسية فقامت في دمشق مظاهرات استنـكار صاخبة .

ووضح للجميع ان الشعب قد انطلق في ثورة غضب عارمة ، وانه لن يقف حتى يحقق مطالبه باكملها . وهنا ابتدأت الخطـة الشيوعية تنقلب على نفسهـا وتتجه اتجاهاً جديداً اكثر وضوحاً من ذي قبـل ، واكثر مسايرة لمطالب الشعب . فاستنكرت صوت الشعب الاعتداء على البرلمان السوري .

وفي اليوم التالي لافتتاحيـة نقولا شاوي عن اسس تسوية العلاقات مع فرنسا ، وصلت الى بيروت الدارعـــة الفرنسية جـان دارك وعلى ظهرها دفعة كبيرة من الجنود الفرنسيين ، فاضربت بيروت على الفور احتجاجاً على هذا العمل . وبعد هذا الاضراب اصدر الحزب الشيوعي اللبناني بياناً تاريخه ١٩٤٥/٥/١٩

يهاجم فيه « الاستعماريين الفاشست الفرنسيين واذنابهم » .

وفي ذلك اليوم ايضاً كان رئيسا الجمهوريتين السورية واللبنانية يجتمعان في « شتورة » ويذيعان بلاغاً مشتركاً يقطعان فيه المفاوضات مع فرنسا لارسالها دفعة ثانية من الجنود الفرنسيين دون موافقة الحكومتين .

وانبرت صوت الشعب عندئذ تتبنى المواقف الوطنية وتتطرف في تبنيها لها مع الحفاظ على خط الرجعة مع الشيوعيين الفرنسيين ، فكتب خالد بكداش مقالاً في صوت الشعب عدد ٩٨٩ تاريخ ١٩٤٥/٥/٢٢ يلقي فيه اللوم على العناصر الفيشية الفاشستية . وهذا ليس الا تغطية فاشلة لموقف فرنسا ، وتحويلاً للموضوع عن اساسه .

وابتدأت سورية المضربة تؤلف حرسها الوطني ، واخذت صوت الشعب تبرز اخبار سورية على صفحتها الاولى وكذلك الاتصالات التي يقوم بها قادة الحزب .

وعندما حصل العدوان الفرنسي على دمشق والمدن السورية الاخرى في ١٩٤٥/٥/٢٩ كتب فرج الله الحلو مقالاً اساسياً بعنوان « فلتسقط البربرية الاستعمارية » في العدد ٩٩٦ تاريخ ٤٥/٦/٣ . وبعد يومين من العدوان كان الجيش البريطاني يتسلم زمام الامور في دمشق ويضع حداً للعدوان الفرنسي . وابرزت صوت الشعب في العدد ٩٩٧ تاريخ ٣و١٩٤٥/٦/٤ الفظائع الفرنسية في دمشق تحت عنوان ضخم هو : « تفاصيل الفظائع التي ارتكبها الفاشست الفرنسيون في دمشق . »

وما ان استلم الجيش البريطاني مهمة الأمن في البلاد حتى جرد الفرنسيين من سلاحهم وحجزهم في الثكنات واخذ يبعدهم عن المدن . واثناء الحوادث ابتدأ عدد من الضباط والجنود السوريين واللبنانيين يفرون من جيش الشرق وينضمون للحكومة السورية مع اسلحتهم ومعداتهم ، وبذلك تشكلت نواة الجيش السوري .

ووضح بعد هذا العدوان ان فرنسا قد خسرت كل رصيدها في سورية ولبنان وان بقاءها في البلدين لم يعد الا مسألة وقت قصير فقط . ولذلك عقد اجتماع مشترك للجنتين المركزيتين في دمشق وصدر على اثره بيان دون تاريخ نشر في العدد ١٠٠١ تاريخ ٩ / ٦ / ١٩٤٥ من صوت الشعب . وللمرة الأولى يتخلى الحزب الشيوعي في هذا البيان عن ذكر التعاقد والتحالف والصداقة مع فرنسا ويأخذ مبدأ الاستقلال التام اساساً وحيداً للبحث ويطلب حل الموضوع دولياً لا اقليمياً ، وان يجري الحل على اساس مبادىء دمبرتون اوكس واهداف مؤتمر سان فرنسيسكو وروح مؤتمر يالطا .

وبعد هذه الاحداث ، ومنعاً لحدوث ما يخشاه الشيوعيون ، واستعجالاً لاخراج الجيوش البريطانية من البلدين ، ومسايرة لمطالب الشعب الواضحة ، ابتدأ الحزب الشيوعي يصدر بيانات متتالية يطالب فيها بجلاء « جميع القوات الاجنبية الفرنسية والبريطانية عن اراضي لبنان وسورية جلاء تاماً . » (بيان مشترك بعد اجتماع للجنتين المركزيتين عقد بتاريخ ٩ آب - اغسطس - ١٩٤٥ ونشر في صوت الشعب العدد ١٠٣٣ تاريخ ١٥/٨/١٩٤٥) .

وأخذت الجريدة تنشر عدة مقالات كتبها وصفي البني وفرج الله الحلو ونقولا شاوي وفؤاد قازان وكلها تطالب بالجلاء وتشدد في تحديد موعد له ، كما طالب بيان اللجنتين المركزيتين الصادر بعد اجتماعها المشترك بتاريخ ١٩ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٥ بالجلاء « التام العاجل » (صوت الشعب العدد ١٠٧٣ تاريخ ١٩٤٥/١٠/٢٨) .

وفي اواخر كانون الثاني ١٩٤٦ عرضت قضية الجلاء عن سورية ولبنان على هيئة الامم المتحدة المجتمعة في لندن ، ومثل سورية الاستاذ فارس الخوري ، ومثل لبنان الاستاذ حميد فرنجية . فاحيلت الى مجلس الامن حيث نوقشت دون اتخاذ قرار ملزم لأن روسيا استعملت حق النقض « الفيتو » لاسقاط مشروع اميركي .

وكان الحزب الشيوعي في هذه الآونة يصدر بيانات ويكتب مطالباً بالجلاء . وعند انتهاء مناقشات مجلس الامن اجتمعت اللجنتان المركزيتان في بيروت بتاريخ ١٩٤٦/٢/٢٤ واصدرتا بياناً مشتركاً يطالب « بالجلاء التام العاجل للجيوش الفرنسية والانكليزية بدون قيد ولا شرط » ويبرز صداقة الاتحاد السوفياتي لشعبنا ودور فيشنسكي في مجلس الأمن ودفاعه عن قضيتنا ، ويطالب الحكومتين بالتشدد في المفاوضات التي ستدور في باريس لتحديد موعد للجلاء . (صوت الشعب العدد ١١٥٤ تاريخ ٣ و ٤ / ٣ / ١٩٤٦) .

واثناء هذه المفاوضات في باريس جرى الاتفاق على ان يتم الجلاء عن سورية قبل آخر نيسان ١٩٤٦ وعن لبنان قبل اول

نيسان ١٩٤٧ .

وعندما تم الجلاء عن سورية بالفعل في ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٤٦ هللت له صوت الشعب وأبرزته على صدر صفحتها الاولى .

المسألة الفلسطينية

ما ان اوشكت الحرب العالمية الثانية على الانتهاء حتى اخذ اليهود يطالبون حلفاءهم في الحرب ضد ألمانيا ، ان يفوا بوعودهم ويحققوا لهم حلمهم القديم . . باقامة دولة يهودية في فلسطين . فعادت المسألة الفلسطينية تبرز من جديد على بساط البحث الدولي ، وعادت جميع الاطراف تتهيأ لمعركة فاصلة قريبة . واحس المعنيون بالامر ان المسألة سوف تصل هذه المرة الى نهاية ما ، خاصة بعد ان ابتدأت المنظمات اليهودية السرية حملة من الارهاب في فلسطين وخارجها ، تناولت المؤسسات والاشخاص الانكليز قبل غيرهم .

ويمكننا الى نميز في موقف الحزب الشيوعي من المسألة الفلسطينية ، خلال هذه السنوات الفاصلة طورين اساسيين يمتد الاول منها حتى نهاية سنة ١٩٤٦ تقريباً ، ويتميز بأبراز المسألة الفلسطينية في صوت الشعب والتشديد عليها ، ويمتد الثاني طوال عام ١٩٤٧ ويتميز باغفال المسألة الفلسطينية واحلالها مكاناً ثانوياً جداً في الجريدة . وهذا الاغفال المقصود لهذه المسألة الخطيرة لم يكن الا التمهيد للموقف النهائي الذي وصل اليه الشيوعيون فيما بعد .

ويمكننا ان نتبين في موقف الحزب الشيوعي ازاء فلسطين نقاطاً اساسية هي في معظمها استمرار لموقفه قبل عشر سنوات ، وهذه اهمها :

اولاً - الصهيونية واليهودية : يتابع الشيوعيون تفريقهم النهائي بين الصهيونية واليهودية ويرون في الصهيونية حركة استعمارية رأسمالية يجب مقاومتها . اما اليهود فشعب مثل بقية الشعوب يمكننا ان نعيش معه بسلام . فقد كتب فرج الله الحلو في العدد ٨٢٦ تاريخ ١٣ و١٤/٨/١٩٤٤ من صوت الشعب مقالاً بعنوان « فلتسقط الصهيونية المجرمة » ، وهو اول مقال عن فلسطين في هذه الفترة قال فيه :

« اجتاحت لبنان والبلاد العربية كلها موجة من الاستياء والقلق على أثر التصريحات التي صدرت عن زعماء الحزبين الاميركيين الجمهوري والديموقراطي بعزمهم على جعل فلسطين وطناً قومياً للصهيونيين ...

« فالصهيونية حركة استعمارية هدفها الاقتصادي تصدير الرساميل الى فلسطين وما جاورها من البلاد العربية وجعلها جميعاً سوقاً للاستثمار وتصريف البضائع . ومن هنا ابلغ الضرر والخطر ، لا على فلسطين وحدها بل على الحياة الاقتصادية في البلاد العربية كلها ...

« والصهيونية بحكم كونها حركة استعمارية ، تناقض اهداف العرب التحريرية والاستقلالية على خط مستقيم ، فهدفها السياسي خلق نقطة ارتكاز متينة امينة للنفوذ الاستعماري الاجنبي في

فلسطين اولاً ، ونقاط ارتكاز اخرى او طابور خامس للاستعمار في بقية الاقطار المجاورة ...

« لقد كنا وما زلنا نقول ان نضال العرب في فلسطين ضد الصهيونية ، ليس نضالاً بين عرب ويهود ، اي ليس نضالاً عرقياً ولا دينياً ... بل هو نضال سياسي ، نضال وطني ضد شكل من ابشع اشكال الاستعمار الاجنبي ...

« ان الصهيونية فاشلة حتماً ... وقضية العرب منتصرة حتما .. »

ان هذا القول ، كما هو واضح ، ليس الا تشويهاً لحقائق لا يمكن نكرانها . فالوطن المطلوب انشاؤه في فلسطين ليس وطناً قومياً للصهيونيين بل وطناً قومياً لليهود . واليهود في العالم اجمع . مهما تضاربت آراؤهم السياسية حول الحركة الصهيونية ، سواء اكانوا من محبذيها واتباعها او من مناهضيها وخصومها ، يتفقون على موضوع الوطن القومي اليهودي في فلسطين . كما ان الحافز الذي يدفع اليهود للهجرة الى فلسطين واغتصابها ، دون بقاع العالم الاخرى ، ليس حافزاً اقتصادياً ابداً ، بل هو حافز ديني نفسي عميق متأصل في الدين اليهودي وفي عقول اليهود اجمعين . وهذا الموقف الشيوعي المبدئي من المسألة الفلسطينية وتعليلاتها ، يعطينا فكرة واضحة عن ضيق افق التأويلات الشيوعية وتشويهها للحقائق على طريقتها الخاصة .

وفي عام ١٩٤٥ اقترح ترومان ادخال مئة الف يهودي من ضحايا الاضطهاد النازي في اوروبا الى فلسطين ، كما كان الارهاب اليهودي على الانكليز لا يزال مستمراً ، فعقد ممثلو الحزبين

الشيوعيين في سورية ولبنان اجتماعاً مشتركاً في دمشق بتاريخ ١٥ / ١٠ / ١٩٤٥ خصص لبحث موضوع فلسطين ونشرت صوت الشعب محضراً عنه في العدد ١٠٦٧ تاريخ ١٨/١٠/١٩٤٥. ويتابع هذا المحضر تفريقه بين الصهيونية واليهودية فيقول ان مكافحة الصهيونية ليست «عداء لليهود من حيث هم يهود .» وان «الصهيونية حركة رجعية رأسمالية عميلة للاستعمار وهدفها هو بسط سيادة الشركات الرأسمالية الاحتكارية الدولية على مرافق فلسطين وكل الاقطار العربية الاخرى .»

ويقول خالد بكداش في مهرجان اول ايار (مايو) ١٩٤٦ في دمشق ما يلي :

«... نحن لسنا اعداء لليهود بل نحن اعداء للصهيونية، اعداء قدماء لها ، فهي حركة استعمارية رأسمالية رجعية مهمتها في الغرب محاولة القاء الشقاق والتفرقة بين العمال اليهود وغيرهم من العمال في كل قطر ومحاربة الاشتراكيين ، ومهمتها فيما يتعلق بفلسطين خدع العمال اليهود وجرهم الى خدمة مآرب غريبة عن الديموقراطية والاشتراكية هي مآرب الاستعمار البريطاني والرأسمالية الصهيونية المندمجة بالرأسمال الانكليزي والاميركي .

«... فالصهيونية اذن مصيرها الى الزوال والاضمحلال مع تطور الديموقراطية والافكار الاشتراكية الصحيحة في العالم ... فليس لنا نحن العرب ان نصيح اذن بالويل والثبور ، بل ان ننظر الى المستقبل بعزيمة وثقة ، فما دام المستقبل للحرية فهو لنا ...»

يضيف هذا المقطع فكرة جديدة الى موضوع مكافحة الصهيونية وهو ربط هذه المكافحة بتقدم الشيوعية وانتصارها في العالم . وليس لنا ان نبرز الخطر العظيم الكامن في مثل هذا التخدير الوهمي الذي يخرج مسألة فلسطين من اطارها القومي ليلقي بها في خضم المعترك السياسي الدولي ويربط مصيرها بمصير معركة قد لا يكون لها اية فائدة من الدخول فيها . ونحن سوف نرى فيما بعد ، هذه الفكرة تسيطر على كل موقف الشيوعيين من المسألة الفلسطينية .

وهذا التفريق الجازم بين الصهيونية واليهودية يقود الشيوعيين انسجاماً مع نظرتهم للدعوة الى التآخي بين العرب واليهود كما وضح لنا من المقاطع السابقة ، والى التبشير بامكانية تعايش اليهود مع العرب في ظل نظام ديموقراطي – اي شيوعي حسب مفهومهم للديموقراطية .

ثانياً – الغاء الانتداب : تابع الحزب الشيوعي حملته على بريطانيا التي ابتدأها منذ جلاء القوات الفرنسية عن سورية ولبنان ، وتوسع في مطلبه الذي نادى به عام ١٩٣٦ - ١٩٣٨ والقائل باقامة حكم ديموقراطي في فلسطين. فأخذ الان يردد شعاراً واحداً يتألف من ثلاثة مقاطع هي : الغاء الانتداب، والاستقلال وجلاء الجيوش البريطانية ، واقامة حكم ديموقراطي في البلاد . وكان التوسع في هذه المطالب والتشديد عليها يختلف من وقت الى آخر ، ولكن مع الاستمرار في التذكير بان هذه المقترحات هي اساس الحل .

يقول عبد القادر اسماعيل في مقال له بعنوان « موقف الجامعة العربية من فلسطين :

« ان القضية الكبرى الموضوعة امام فلسطين هي قضيـــة حريتهـــا واستقلالها ومتابعة النضال لالغاء الانتداب والحكم المباشر ومكافحة الصهيونيـة والرجعيين من العرب الفلسطينيين الذين يساندونها بصورة مباشرة او غير مباشرة ، والكفاح لوقف الهجرة ، وازالة العراقيل التي تضعها الوكالات الصهيونية لمنـع اليهود من الرجوع الى اوطانهم المحررة ...

« هذا وان مكافحة الهجرة الصهيونية والعراقيل التي تضعها وكالات الصهيونيين في سبيل رجوع الجماهير اليهودية – التي اوت الى فلسطين هرباً من الطغيان النازي – الى مواطنها الاصلية ، غدت اقرب منالاً واسرع نجاحاً ... » (صوت الشعب العدد ١٠٢٧ تاريخ ١/٨/١٩٤٥)

ونشير هنا فقط الى التضليـل الشيوعي الكامن في القول بان « الجماهير اليهودية » انما « اوت الى فلسطين هرباً من الطغيان النازيّ » . فهـــذا القول عدا عن مخالفته للحقائق التاريخية يموه خطر الغزو اليهودي المنظم لفلسطين ويقلل من هذا الخطر بأن يجعله مرتبطاً بالاضطهاد النازي لليهود . وهذا امر غير صحيـح اطلاقـــاً .

ونجد في محضر الاجتماع المشترك للحزبين المنعقـد في دمشق بتاريخ ١٥/١٠/١٩٤٥ والذي ذكرناه من قبل ، المقطع التالي :

« فان حل قضية فلسطين حلّاً صحيحاً هو في الغاء الانتداب

عن فلسطين واعلان استقلالها التام ، ومنحها حريتها وسيادتها الوطنية ، ووقف الهجرة الصهيونية مع السماح لليهود الذين يرغبون في ذلك بالرجوع الى اوطانهم المحررة في اوروبا والتي سادت فيها الديموقراطية ، واقامة حكم وطني ديموقراطي في فلسطين يؤمن الحرية والحقوق الديموقراطية العامة لجميع المواطنين . »

ويقول فرج‌الله الحلو في مقال له في صوت الشعب بمناسبة وصول لجنة التحقيق الانكلو اميركية الى بيروت ، ما يلي :

«وليس لهذه القضية سوى حل واحد هو الغاء الانتداب الانكليزي عن فلسطين ، ووقف الهجرة اليها ، واعلان استقلالها ، وافساح المجال لتأليف حكومة وطنية ديموقراطية فيها ... » (العدد ١١٦٥ تاريخ ١٩٤٦/٣/٢٠)

وقال خالد بكداش في خطابه في مهرجان اول ايار (مايو) ١٩٤٦ المذكور آنفاً ما يلي :

« اجل في اعناقنا جميعاً ، واجب تأييد فلسطين لا الى اقصى حد ممكن فقط ... بل الى النهاية ، وبكل الوسائل ، وبكل صراحة ، ودون مراعاة لاحد ، ان في اعناقنا جميعاً لا واجب التأييد لفلسطين ، بل واجب النضال جنباً الى جنب مع فلسطين ضد الانتداب وضد الصهيونية وضد الوطن القومي الصهيوني ، في سبيل استقلالها وقيام حكم ديموقراطي صحيح فيها ... »

وهذا الحل الذي يقترحه الشيوعيون ، هو الطريقة الوحيدة ، على زعمهم ، لاحلال الوئام بين العرب واليهود ، لأن هذا الوئام

هدف اساسي من اهداف العمل الشيوعي . وتقول صوت الشعب في افتتاحية لها وبتوقيع « صوت الشعب » :

« ... والحكومة البريطانية تستطيع اذا شاءت ان تحل قضية فلسطين ، وتلبي مطالب العرب الذين لا يطلبون سوى الغاء الانتداب ومنح فلسطين امكان انشاء حكومة وطنية دستورية ديموقراطية ... وهو حل لصالح العرب واليهود على السواء لانه يضع اساساً صالحاً لزوال التناحر والتباغض بين العنصرين وحلول التعاون والتفاهم . » (العدد ١٠٦٥ تاريخ ١٥/١٠/١٩٤٥) .

ثالثاً ـ رفض التقسيم : لم يتغير موقف الشيوعيين حتى عام ١٩٤٧ من مشاريع التقسيم بل بقي على حاله يرفض هذه المشاريع ويعتبرها استعمارية ضارة بمصالح فلسطين والبلاد العربية كلها .

يقول فرج الله الحلو في مقاله المذكور آنفاً ما يلي :

« امـا مشروع انشاء دولة صهيونية او وطن قومي في فلسطين فهو يشكل اعتداء صارخاً على حقوق فلسطين ، كما انه لا يؤدي الى حل القضية الفلسطينية ، ولا الى حل ما اسموه القضية اليهودية المزعومة ، بل يزيد الموقف تعقيداً وخطورة ، اذ يساعد على استمرار جو العداء والحذر المتبادل بين سكان فلسطين انفسهم من جهة ، وبين الدول العربية و « الدولة » الصهيونية الاصطناعية من جهة ثانية ... »

ويزيد خالد بكداش في مقاله بعنوان « المرحلة الحاضرة في تطور قضية فلسطين » قائلاً :

« ان موقف التساهل بـــل التخاذل انما يزيد المستعمرين والصهيونيين جرأة علينا : فها هم يتكلمون صراحة عن مشروع التقسيم ... ولكن هنالك ادهى من ذلك ، فقد بلغت بهم الجرأة ان اصبحوا يقولون : مقابل كل ذلك اي مقابل الهجرة الجديدة والتقسيم – تقترح انكلترا على اميركا دفع ١٠٠ او ٢٠٠ مليون دولار للعرب ...

« حينما قرأنا الخبر امس ... احسسنا جميعاً بما يشبه الكلاليب تنشب في اعماقنا او بما يشبه الصاعقة تنقض على رؤوسنا ! ...

« ايها المستعمرون : ان هذه الامة لا تشرى ... » (العدد ١٢٣٥ تاريخ ١٩٤٦/٨/١) .

ويعود فرج الله الحلو فيقول في صوت الشعب العدد ١٢٣٨ تاريخ ٤و١٩٤٦/٨/٥ .

« ... ان هـذا المشروع – (مشروع التقسيم) – ، اذا استطاعوا تنفيذه ، يقضي قضـــاء تاماً على كيان فلسطين وعلى املهـا بالاستقلال والحرية ... واليوم يستطيع العرب ويجب عليهم ان يحبطوا مشروع التقسيم الجديد وينقذوا فلسطين من اخطاره وشروره ... »

وكانت اشهر صيف ١٩٤٦ اشهر حملة شيوعية واسعة بالنسبة للمسألة الفلسطينية وخاصة لرفض مشروع التقسيم . فبعـد هذه الحملة الواسعة في جريدة صوت الشعب ، عقد الحزبان الشيوعيان السوري واللبناني اجتماعاً مشتركاً في شتورة بتاريخ ١٨ آب (اغسطس) ١٩٤٦ خصص لبحث القضية الفلسطينية وصدر على

اثره بيان مشترك طويل جاء فيه حول موضوع التقسيم المقطع التالي : (صوت الشعب العدد ١٢٤٩ تاريخ ١٩٤٦/٨/٢٢)

« ... ان الحكومة البريطانية عازمة على تحقيق مآربها في فلسطين عن طريق تقسيم فلسطين ، هذا المشروع الذي يعد وصمة عار مخجلة في جبين الانسانية . لقد استنكر الرأي العام العربي مشروع تقسيم فلسطين واعلن رفضه رفضاً باتاً ، لأنه افظع مشروع استعماري يمكن ان يبتلى به الشرق العربي ، واكبر خطر يهدد السلام في كل الشرق الادنى . »

ونحن اذا كنا نتوسع في الاستشهاد باقوال الشيوعيين في مشروع التقسيم عام ١٩٤٦ فلكي يمكننا ان نرى فظاعة الانقلاب الذي حدث في موقفهم خلال العام التالي، من هذا المشروع نفسه.

رابعاً — الاطار الدولي : كانت مشكلة الجلاء عن سورية ولبنان ، وطرحها امام مجلس الامن الدولي في مطلع عام ١٩٤٦ مناسبة ممتازة للدعاية الشيوعية . فان موقف الاتحاد السوفياتي من موضوع الجلاء عن البلدين ، وتأييده المطلق لهما في موقفهما قد خدم الدعاية الشيوعية في سورية ولبنان خدمة لا تقدر عرفت جريدة صوت الشعب كيف تستفيد منها وتبرزها على صفحاتها الاولى اشد ابراز واقواه .

وقياساً على ما جرى بالنسبة لسورية ولبنان، اخذ الشيوعيون يطالبون باصرار وتكرار ان تخرج المسألة الفلسطينية من اطارها الاقليمي ، وتطرح على الامم المتحدة .

وابتدأ الحزب الشيوعي حملته هذه عندما انعقدت دورة

الجامعة العربية في بلودان لبحث قضية فلسطين ، بمقال في جريدة صوت الشعب وبتوقيع « صوت الشعب » العدد ١٢٢٠ تاريخ ١٩٤٦/٦/١٤ وبعنوان « اخراج قضية فلسطين الى النطاق الدولي . » تقول الجريدة :

« يقول بعض الاخوان القوميين من فلسطين وغيرها ان القضية لن تحل الا بالنضال ... ولكن هذا النضال في الظروف الدولية الحاضرة بوجه خاص يجب ان يدعمه ايضاً الحق الدولي... ومهما كانت القرارات الدولية التي سنفوز بها وسواء اكانت ناجعة تماماً ام غير ناجعة تماماً ... فهناك على كل حال ربح واضح هو فضح السياسة الاستعمارية البريطانية امام الرأي العام العالمي وكشف النقاب عن حقيقة الحركة الصهيونية واظهار حقيقة موقف العرب الذين يتهمهم اعداؤهم ... بالعرقية وبالعداء لليهود ... »

واضح من هذا المقال ان الهدف من عرض المسألة على هيئة الامم المتحدة ليس نجاحها ، بل فضح الاستعمار ، كأن فضح الاستعمار ينقذ فلسطين من خطر الاغتصاب الذي يتهددها .

وكان الشعار الذي استخدمته صوت الشعب للوصول الى تقرير اخراج المسألة الفلسطينية الى النطاق الدولي هو عدم جدوى المفاوضات . وتقول الجريدة في عددها ١٢٣٩ تاريخ ١٩٤٦/٨/٧ وبتوقيع صوت الشعب :

« ... فان قضية فلسطين لا يمكن بوجه من الوجوه ان تحل بمفاوضات خارجة عن نطاق الامم المتحدة ومحصورة بين الحكومات العربية وانكلترا وحدها او بينها وبين انكلترا

واميركا معاً ، مهما كان اساس هذه المفاوضات ومهما كان شكلها ..

« ان قضية فلسطين لا بد ان تخرج الى الميـدان الدولي ... فاما ان تنتقل الى وصاية الامم المتحدة لتسير بها نحو الاستقلال ، واما ان تمنح استقلالها فوراً .. »

وهذا المقطع كالمقطع السابق يدلل بوضوح على ان الشيوعيين كانوا يعرفون منذ ذلك الوقت ان طرح مسألة فلسطين على هيئة الامم المتحدة لن يكون لصالحنا ، ومع ذلـك فانهم يتابعون الدعوة للوصول الى الهيئة الدولية . والحقيقة التي لا مناص لنـا من قولها ، هي ان الحكومة السوفياتية كانت في ذلـك الوقت تغتنم اية فرصة لضرب الاستعمار البريطاني في الشرق وللقيام بحملة اذاعية واسعة تدفعها خطوة جديدة نحو قلب المنطقة الحساسة التي كانت لا تزال مغلقة عليها حتى ذلك الحين .

ولم يتردد الشيوعيون في بيانهم المشترك الصـــادر بتاريخ ١٨/٨/١٩٤٦ والمذكور من قبل في ان ينسفوا كل اساس قومي لمشكلة فلسطين ليستطيعوا ان يخدموا روسيا خدمة اذاعية بسيطة. يقول البيان :

« ... ان قضية فلسطين هي قضية دولية بالدرجـة الاولى ! فالواجب الوطني يقضي على الحكومتين السورية واللبنانية بالاستفادة من حق العرب الدولي والعمـل لعرض قضيـة فلسطين على مجلس الأمن بوصفها مصدر خطر يهدد السلام في كل الشرق الادنى ...

« ان جميع قـوى الحرية في العالم وفي طليعتهـــا الاتحاد السوفياتي الكبير الذي ايد سوريا ولبنـان في مجلس الامن اروع

تأييد لاجل الجلاء ، هي اليوم ايضاً بجانبنا في قضية فلسطين وهي تؤيد قضيتنا العادلة في مقاومة الاستعمار والصهيونية، وفي المطالبة بالغاء الانتداب وبالجلاء والاستقلال والحكم الديموقراطي ... »

وتجاوبت عصبة التحرر الوطني في فلسطين ، وهي الفرع العربي للحزب الشيوعي الفلسطيني ، مع هذه البادرة ، فطلبت بدورها اخراج قضية فلسطين الى الميدان الدولي . (صوت الشعب ١٢٧٣ ، تاريخ ١٦/١٠/١٩٤٦ .

لعل هذا الموقف كاف وحده ليبرهن على ان الشيوعيين لم ينظروا مرة واحدة الى مسائلنا القومية الكبرى ، وخاصة الى مسألة فلسطين ، الا بعين الاجانب الغرباء عن هذه المسائل .

خامساً ــ اغفال حوادث فلسطين : كانت هذه السنوات ، منذ عام ١٩٤٤ حافلة بحوادث الارهاب اليهودي في فلسطين ، زاخرة بالتحضير النفسي والمادي الذي يقوم به اليهود للوصول الى اهدافهم. غير ان جريدة صوت الشعب، الصادرة في بيروت، لم تكن تعرف ان هناك عصابات يهودية ومنظمات عسكرية « صهيونية فاشستية » تزرع الرعب والدمار في جميع ارجاء فلسطين . فقد كانت سياسة الجريدة تقوم على عدم ذكر اية اشارة ولو بسيطة لهذه الحوادث . ولم يشذ عن هذه القاعدة « الحيادية » الا حادثان فقط هما حادث نسف فندق الملك داود في القدس عام ١٩٤٦ وقد ذكر مرة واحدة فقط ، وحادث مقتل السيد سامي طه عام ١٩٤٧ الذي اشارت اليه الجريدة في صفحتها الاخيرة باسطر قليلة في احدى الزوايا المغمورة . وفيما

عدا ذلك كانت الجريدة تلتزم صمتاً يشبه صمت الاموات .

ويمكننا ان نفسر هذا الصمت بسببين : اولهما : ان الارهاب اليهودي كان يتناول بالدرجــــة الاولى الانتداب البريطاني في فلسطين الذي يقاومه الشيوعيون ويسعون للخلاص منه ، ولذلك لم يكن باستطاعتهم شجب الارهاب لان مثل هذا الشجب يمكن ان يعتبر تأييداً للانكليز من ناحية معنوية . لقد اغفل الشيوعيون هنــا المصلحة القومية في ان لا يكون لليهود اية قوة معنوية او مادية في فلسطين ، لأن هذه القوى مهما كانت مبررات وجودها تعتبر ضربة لحقنا القومي في فلسطين ، وهـــذا ما حصل بالفعل فيما بعد .

وثاني السببين هو ان النظرة الشيوعية تقوم على احلال الوئام والوفاق بين العرب واليهود ولذلك فان ذكر الارهاب اليهودي يمكن ان يذعر العرب ويثير مخاوفهم ويدفعهم بالتـالي للتسلح والنقمة على اليهود . لقد تصرف الشيوعيون في هـذه المسألة تماماً كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمل لكي لا يراها الصياد .

انقضت بانقضاء صيف ١٩٤٦ فترة الحماسة الشيوعية لموضوع فلسطين ومع ان انكلترا كانت قد اخذت بوجهة النظر الشيوعية في مطلع عام ١٩٤٧ وطرحت موضوع فلسطين على الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة ، فان الشيوعيين لم يتحمسوا كثيراً لهــذا الموضوع . وعنـدما عقدت الجمعيـة العمومية دورتها الاستثنائية لبحث موضوع فلسطين في اواخر نيسان (ابريل) ١٩٤٧ كانت

صوت الشعب تكتفي بايراد الاخبار دون اي تعليق . غير ان هـذا الفتور كان ينقلب هياجاً عندما يتعرض احد الشيوعيين في مؤتمر عالمي مثل اتحاد نقابات العمال ، لمنافسة يهودية .

واثناء الحملة الانتخابية التي خاضها خالد بكداش في سورية في صيف عام ١٩٤٧ كان التوتر الشعبي يضطره لذكر فلسطين فيقدم اقتراحاته المعروفة التي تطالب بالغاء الانتداب البريطاني والاستقلال والجلاء واقامة حكم ديموقراطي ووقف الهجرة ورفض التقسيم ورفض اقامة دولة يهودية .

وبعد مناقشات الجمعية العمومية تألفت لجنة تحقيق دولية حضرت الى بيروت في اواخر تموز (يوليو) ١٩٤٧ حيث اجتمعت مع ممثلي الدول العربية فرفض هؤلاء التقسيم وطلبوا اقامة « حكومة وطنية مستقلة يمثل فيها السكان تمثيلاً نسبياً . »

واستمعت اللجنة ايضاً الى الحزب الشيوعي الفلسطيني وكان المتكلم باسمه رئيسه ميكونس فكانت اهم النقاط الواردة في شهادته هي التالية ، كما نقلتها صوت الشعب عن جريدة الاتحاد الناطقة بلسان عصبة التحرر الوطني وعن جريدة الاهرام المصرية (صوت الشعب العدد ١٤٤٩ تاريخ ٢٧ و ١٩٤٧/٧/٢٨) : رفض التقسيم والدولة الثنائية والدولة اليهودية والمطالبة بالجلاء والاستقلال وبحكومة ديموقراطية موحدة غير مجزأة . كما قال ميكونس ان اليهود لا يهاجرون الى فلسطين الا مضطرين وبعد ان اقفلت بريطانيا ابوابها في وجوههم وفتحتها للعناصر الفاشستية البولونية .

وكانت الحكومة السوفياتية قد اتخذت على ما يبدو قرارها حول التقسيم في صيف ١٩٤٧ ، فأبتدأت صوت الشعب تنشر في صدر صفحاتها مقالات لمكتب الانباء السوفيـاتي عن المسألة الفلسطينية . وتدور هذه المقـالات حول الهجوم على الاستعمار والمطالبة « بالغاء الانتداب واستقلال فلسطين وانشاء حكومـة ديموقراطية مستقلة فيها . » (صوت الشعب العدد ١٤٦٦ تاريـخ ٢٣ / ٨ / ١٩٤٧ ، توقيـع بالكانوف .)

وبعد ان اذاعت لجنة التحقيق الدولية مقترحاتهـا القاضية بالتقسيم حسب رأي اكثرية اعضائها ، او بانشاء دولة ثنائيـة اتحادية حسب رأي الاقلية ، امتنعت صوت الشعب عن التعليق على المقترحات واكتفت بنشر تعليـق عصبة التحرر الوطني في فلسطين التي ترفض التقسيم وتعلن ان «طلب فلسطين الاساسي .. (هو) جلاء جيوش الاحتلال والغاء الانتداب وتحقيق الاستقلال التام في ظل حكم ديموقراطي . » (العدد ١٤٧٩ تاريخ ١١/٩/١٩٤٧) .

ثم عادت ونشرت تعليقاً آخر لمكتب الانباء السوفياتي يقترح في نهايته الاتجاه « نحو تسوية عادلة وديموقراطية للمسألة الفلسطينية ، تسوية اساسها استقلال فلسطين والتعاون بين سكانها . » (العدد ١٤٨١ تاريخ ١٣ / ٩ / ١٩٤٧) .

اما قرارات اللجنة السياسية للجامعة العربية المجتمعة في صوفر بتاريخ ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٧ فقد اوردتها كخبر عـام دون تعليق .

غير ان الشيوعيين الذين برعـوا في ستر نواياهم وافكارهم

استغلالاً للفرص ومسايرة للرأي العام ، عادوا عندما اعلنت الشعوب العربية يوم ٣ تشرين اول (اكتوبر) ١٩٤٧ يوم تضامن مع فلسطين ، فابرزوا هذا في جريدتهم واذاع الحزب الشيوعي السوري بياناً مقتضباً يتكلم فيه عن تأييد الشعب السوري لنضال فلسطين في كلمات غامضة دون وضوح . (العدد ١٤٩٦ تاريخ ٣ / ١٠ / ١٩٤٧) وفي هذا العدد من صوت الشعب نفسه نشرت الجريدة تفاصيل اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني مع قواد المناطق الرئيسية برئاسة نقولا شاوي بتاريخ ٢١ / ٩ / ١٩٤٧ واوردت النص الحرفي لتقرير نقولا شاوي ، وليس فيه اية اشارة الى موضوع فلسطين .

ولم يكن باستطاعة الحزب الشيوعي ان يستمر في موقفه المتجاهل لمعركة فلسطين ، فان ضغط الرأي العام الحزبي وغير الحزبي كان يضطره لأن يقول شيئاً فقال اخيراً ما كان ينتظر الجميع ان يقول .

وحمل العدد رقم ١٥٠٧ تاريخ ١٩ و٢٠/١٠/١٩٤٧ من جريدة صوت الشعب بياناً مشتركاً من الحزبين الشيوعيين اللبناني والسوري تحت عنوان « قضية فلسطين قضية جلاء واستقلال وحرية . » ولكنه يعالج الموضوع بين عدة مواضيع اخرى لكي لا يقال انه اصدر ، في هذا الظرف الحرج ، بياناً خاصاً بفلسطين. وهذا هو النص الكامل للمقطع المختص بفلسطين:

« ان قضية فلسطين تجتاز مرحلة دقيقة تتميز بتنوع وتكاثر المؤامرات الاستعمارية الانكليزية والاميركية الرامية الى اخراج

هذه القضية عن حقيقتها وطمس معالمها واعطائها الشكل الذي يمكن المستعمرين من تنفيذ اهدافهم ومطامعهم .

« ان المستعمرين الانكليز، وقد انضم اليهم في السنين الاخيرة المستعمرون الاميركيون ، قد عملوا دائماً لجعل القضية الفلسطينية قضية نزاع عنصري عربي يهودي . ولاجل ذلك سعوا ، يساعدهم زعماء الصهيونية ، الى تغذية التوتر والحقد بين العرب واليهود في فلسطين ، ومنع اي تقارب او اتفاق بين الطرفين . وكان هدفهم دائماً تأمين سيطرتهم والمحافظة على احتلالهم واستعمارهم . وها هم اليوم يستغلون الحالة التي خلقوها هم انفسهم لاجل تقسيم فلسطين واقامة دولتين فيها ، وهدفهم من ذلك هو هو ، تثبيت سيطرتهم واستعمارهم واحتلالهم بالتعاون مع خدمهم زعماء الصهيونية وعملائها ودعاتها .

« ولا ريب ان السياسة التي سارت عليها بعض الاوساط العربية ، وخصوصاً تلك الاوساط المتصلة بالاستعمار الانكليزي وكذلك الاوساط ذات العقلية الاقطاعية الرجعية قد ساعدت في تنفيذ مآرب المستعمرين والصهيونيين في الدعوة للتقسيم وجعل القضية قضية نزاع عربي يهودي ، وبايجاد الحجج لدعم مزاعمهم القائلة باستحالة عيش العرب واليهود في دولة واحدة .

« ان الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني يعتقدان اعتقاد جازماً بأن قضية فلسطين هي قضية حرية وجلاء واستقلال، وهم واثقان من انهما يعبران عن رأي جميع الوطنيين الديموقراطيين العرب في التأكيد بأن حل قضية فلسطين هو في الجلاء والاستقلال

والغاء الانتداب ورفض مشروع التقسيم رفضاً باتاً ، كما يعتقدان بأن من الممكن ان يعيش العرب واليهود في فلسطين في ظل دولة ديموقراطية مستقلة واحدة .

« ان واجب الوطنيين الديموقراطيين العرب في نضالهم ضد التقسيم ، ان يقاوموا بقوة وحزم جميع المحاولات التي تحمل لواءها بعض الاوساط الرجعية المرتبطة بالاجنبي في الاقطار العربية ، تلك المحاولات الرامية الى اخراج حركة التضامن العربي مع فلسطين من نطاق النضال ضد الاستعمار والاحتلال والصهيونية ، وتحويله الى نضال عرقي عربي يهودي .

« ان الشرط الاساسي لنجاح النضال العربي ضد التقسيم هو في الوقوف بحزم وجرأة في وجه كل سياسة ترمي الى جر العرب لمثل هذه المغامرات التي لا يقتصر اذاها وضررها على قضية فلسطين العزيزة ، بل تتناول سمعة العرب جميعاً وتهدد استقلال سوريا ولبنان بالدرجة الاولى ونظامها الجمهوري ، كما تهدد مستقبل نضال بقية الشعوب العربية في سبيل الجلاء والاستقلال .

« ان العالم اجمع يجب ان يعرف ويقتنع ان نضال العرب لاجل فلسطين هو قبل كل شيء نضال وطني ضد الاستعمار والاحتلال في سبيل الاستقلال والجلاء والديموقراطية .

« وان تضامن العرب في جميع اقطارهم مع فلسطين ، في نطاق النضال ضد الاستعمار هو السبيل الوحيد القويم للفوز بتأييد القوى الديموقراطية في العالم واحباط مشاريع التقسيم والدولة الصهيونية ، وتحقيق استقلال فلسطين وتحريرها من الاحتلال

والانتداب ضمن دولة ديموقراطية مستقلة . »

هذا البيان ، كما هو واضح تكشيف لجميع عناصر الموقف الشيوعي تجاه قضية فلسطين ، بالاضافة الى انه يعلن بكل صراحة ان دفاعه عن فلسطين منحصر « في نطاق النضال ضد الاستعمار » وهذا في رأي جميع المخلصين منتهى الخيانة الوطنية .

ولم يكن بامكان الحكومة اللبنانية ان تسكت عن هذا الموقف فعطلت جريدة صوت الشعب وكان آخر عدد صدر منها يحمل الرقم ١٥٠٩ وتاريخه ١٩٤٧/١٠/٢٢ .

وعندما طرح مشروع التقسيم على التصويت في الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة في ٢٩ – ١٠ –١٩٤٧ وقف المندوب الروسي وايد زميله المندوب الاميركي في موافقته على تقسيم فلسطين محققاً بذلك قول الحزب الشيوعي في سورية ولبنان بان « جميع قوى الحرية في العالم وفي طليعتها الاتحاد السوفياتي الكبير ... هي اليوم ... بجانبنا في قضية فلسطين . »

قوة الحزب

مما لا شك فيه ان الحزب الشيوعي بلغ خلال فترة انتشاره العلني هذه درجة عالية سواء من حيث القوة العددية او القوة الشعبية الاذاعية وليس ادل على ذلك من الاعداد البشرية التي تحضر مهرجاناته الخاصة والعامة ، او تلك التي تشترك في استقبال مسؤوليه او التي تدلي باصواتها مع مرشحيه ، اضف الى ذلك الحملات التي كان يشنها على خصومه السياسيين وخاصة الحزبيين

منهم والبرقيات التي يستطيع اعضاؤه ان يرسلوها من مختلف المنـــاطق .

ويمكننا ان نميز خلال هذه الفترة ثلاثة احداث داخلية هامة استطاع الحزب الشيوعي ان يدلل فيها على قوته الشعبية وهي : حملته على الحزب السوري القومي الاجتماعي والانتخابات النيابية وحملته على الاخوان المسلمين .

اولاً : الحملة على الحزب السوري القومي : ابتدأت هذه الحملة في منتصف عام ١٩٤٤ عندما اعطت الحكومة اللبنانية للحزب القومي ترخيصاً رسمياً بالعمل ! فابتدأت جريدة صوت الشعب حملة من الافتتاحيات والمقالات عن الفاشستية وضرورة سحقها كما ارسل فرج‌الله الحلو رئيس الحزب الشيوعي اللبناني برقية الى رئيس الحكومة اللبنانية يحتج فيها على هذا العمل . وتدفقت على اثر هذه البرقية سيول من البرقيات على الحكومة اللبنانية ، من لبنـــان وسورية وكلها تطلب القضاء على « فلول الفاشست » و « الخونة » و « عملاء هتلر » . ونظمت عصبة مكافحة الفاشستية والنازية اجتماعاً ضخماً في سينما الروكسي ببيروت بتاريخ ٩ تموز (يوليو) ١٩٤٤ لمتابعة الحملة . واستمرت بيانات الحزب الشيوعي وخطب قادته تطالب بهذا المنع طوال صيف عام ١٩٤٤ .

واثناء التظاهرات التي قامت في بيروت بمناسبة وعد بلفور في ٢ - ١١ - ١٩٤٥ اصطدم الشيوعيون مع القوميين في ساحـة الشهداء ووقع قتيل من الشيوعيين وقتيل آخر من القوميين . فهاج الشيوعيون مرة ثانية وعادت الحملة على الحزب القومي تشتد ،

وانهمرت البرقيات على الحكومة اللبنانية من سورية ولبنان وكلها تطلب منع الحرية عن الحزب السوري القومي . وخصصت صوت الشعب عمودين تقريباً في صفحتها الداخلية كل يوم لهذا الموضوع لمدة شهرين او اكثر .

وفي مطلع عام ١٩٤٧ عرف ان مؤسس الحزب السوري القومي الاستاذ انطون سعادة ، يتهيأ للعودة الى لبنان من الارجنتين ، فعاودت صوت الشعب حملتها الشديدة على سعادة بالذات وعلى الحزب القومي واستمرت هذه الحملة حتى صيف ١٩٤٧ ، عندما انتقلت في حملتها الى الاخوان المسلمين .

ثانياً – الانتخابات النيابية : ابتدأ الحزب الشيوعي منذ عام ١٩٤٤ يهيء للمعارك الانتخابية القادمة . فأخذ في تلك الفترة ينشر اسماء المنتسبين اليه من مختلف مناطق لبنان . وهي المرة الاولى التي يلجأ فيها الحزب الشيوعي لمثل هذا الاعلان الصحفي عن اعضائه ، ولكنه كان يقصد من ذلك التدليل على سعة الاقبال الشعبي الذي يلاقيه وربط هؤلاء الاعضاء الجدد به ربطاً علنياً . وفي دمشق اغتنم الحزب فرصة انتهاء الحرب للقيام بمظاهرات شعبية واسعة كان الشيوعيون على رأسها دائماً .

واخذ الحزب في هذه الفترة خطة التقرب من الشخصيات السياسية البارزة وحتى تلك التي تبعده عنها المباديء والاهداف ، فقد ذكرنا حضور الاستاذ حبيب ابي شهلا ، نائب رئيس وزارة لبنان المؤتمر الوطني للحزب ، كما حضر الشيخ بيير الجميل رئيس حزب الكتائب اللبنانية ، والدكتور انيس الصغير رئيس حزب

النجادة احتفال الحزب الشيوعي بذكرى اعلان الميثاق الوطني في قاعة الروكسي ببيروت بتاريخ ٣ - ٢ - ١٩٤٦ (صوت الشعب . العدد ١١٣٧ تاريخ ٧ - ٢ - ١٩٤٦)

وكانت احتفالات اول ايار ١٩٤٦ ضخمة في كل المدن حضرها الوف من البشر ، وكذلك كانت زيارة نقولا شاوي لطرابلس واستقباله على طول الطريق الساحلي .

وعندما اقامت الحكومة اللبنانية الدعوى على اركان الحزبين الشيوعيين في سورية ولبنان بسبب بيان صدر عنهما بتاريخ ٢٨ - ٦ - ١٩٤٦ وفيه هجوم على الاستعمار البريطاني وتدخله في شؤون سورية ولبنان ، حضر المتهمون الى المحكمة في تظاهرة شعبية ضخمة وكانوا : فرج الله الحلو ، خالد بكداش ، رشاد عيسى ، حسن قريطم ، نجاة قصاب حسن ، وصفي البني ، هاشم الامين . وقد اسقطت الحكومة اللبنانية هذه الدعوى بتاريخ ١١-١- ١٩٤٧ .

وفي اواخر عام ١٩٤٦ حل نقولا شاوي مكان فرج الله الحلو في رئاسة الحزب الشيوعي اللبناني وسافر فرج الله الحلو الى فرنسا ومنها الى انكلترا لحضور المؤتمر الشيوعي الانكليزي . وقد اعلن هذا التغيير بالبلاغ التالي :

« عقد المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني اجتماعاً في بيروت حضره فرج الله الحلو ، نقولا شاوي ، فؤاد قازان ، حسن قريطم ، هاشم الامين ، ماير مسعد ، يوسف خطار . وقد تقرر بالاجماع الموافقة على سفر فرج الله الحلو الى باريس ولندن ، وقرر المكتب السياسي بالاجماع انتخاب نقولا شاوي رئيساً

للحزب الشيوعي اللبناني . » (صوت الشعب العدد ١٣١٩ تاريخ ٢٦ - ١٢ - ١٩٤٦) .

وعندما اعلن موعد الانتخابات النيابية في سورية ولبنان عاد فرج‌الله الحلو وخالد بكداش من اوروبا ، فجرى لهما استقبال حافل في بيروت . وترشح فرج‌الله الحلو عن جبل لبنان ، ونقولا شاوي عن محافظة الشمال ، وايد الحزب ترشيح المهندس انطون ثابت عن جبل لبنان ايضاً ، ومصطفى العريس عن بيروت . وجرت الانتخابات في ٢٥ ايار (مايو) ١٩٤٧ فحاز الشاوي ٧٣٧٣ صوتاً مقابل ٣٠ الفاً نالتها القائمة الحكومية المنفردة في المحافظة ، كما نال العريس ٣٢٠٠ صوتاً مقابل ١٧٠٠٠ للقائمة الحكومية ، ونال فرج‌الله الحلو ١٠٢٠٣ وثابت ٦٨٩٠ . ومن المعروف ان حكومة لبنان قد زورت هذه الانتخابات لانجاح قائمتيها في بيروت وجبل لبنان تزويراً فاضحاً .

اما انتخابات سورية فقد جرت في ٧ تموز (يوليه) ١٩٤٧ وترشح لها خالد بكداش في دمشق ، ووصفي البني في حمص وحسن البيك في حلب . وكانت هذه الانتخابات هي الاولى التي تجري على درجة واحدة . فنال وصفي البني ٤٤١٢ من ٢٦٠٠٠ للفائزين ، كما نال بكداش في الدورة الاولى ٩٦٠٠ صوتاً وفي الاقتراع التكميلي ١١٤٥٣ . ومن المعروف ايضاً ان الاقتراع التكميلي قد زور بصورة مفضوحة لانجاح مرشحي الحكومة واسقاط مرشحي رجال الدين والاخوان المسلمين .

وكانت نتائج هذه الانتخابات تثبت قوة خالد بكداش

الانتخابية في دمشق برقم ممتاز بالنسبة له ولكونه مرشحاً منفرداً، وبدء حملة الحكومة السورية على الاخوان المسلمين، تلك الحملة التي تلقفها الشيوعيون ورفعوا لواءها.

ثالثاً ـ الحملة على الاخوان المسلمين: امتدت هذه الحملة اكثر من شهر من تموز (يوليه) الى آب (اغسطس) ١٩٤٧ بصورة متواصلة ثم اصبحت متقطعة بعد ذلك. وكان لولبها الاول المحامي نجاة قصاب حسن عضو اللجنة المركزية. وتناولت المقالات الطويلة ضد الاخوان فضائح اخلاقية ارتكبها قادتهم، واعمالاً مخالفة لقواعد الدين الاسلامي يقوم بها افرادهم، ونعتهم بانهم عملاء للانكليز ومحاولة البرهنة على ذلك.

واقترنت هذه الحملة ايضاً بالحملة على مشروع «الكتلة الشرقية» ومشروع «سورية الكبرى» والملك عبدالله ملك الاردن.

ويمكننا ان نلاحظ ان هذه الحملات كانت تشن كلها في وقت تأزم مسألة فلسطين. وأحد اهدافها تغطية الاغفال المطلق لحوادث فلسطين في جريدة صوت الشعب.

والشيء المهم هنا، هو ان الحزب الشيوعي اغتنم فرصة هجوم حزب الوفد المصري على الاخوان المسلمين وعداء الحكومة السورية لهم، ليشن هو حملته ايضاً، فيظهر وكأنه يقود هذا التيار المعادي للاخوان في سورية ولبنان.

وهذا الهجوم، بحد ذاته، دليل على شعور الشيوعيين بقوتهم الذاتية، لأن قوة الاخوان في دمشق وحمص بصورة خاصة كانت عنيفة وطاغية، ورصيدهم الشعبي كبير وواسع.

ويعتبر اقفال صوت الشعب وموقف الحزب الشيوعي من المسألة الفلسطينية ، ذلك الموقف الذي قاده في النهاية لاعتبار التقسيم الحل الوحيد الممكن في الظروف الراهنة ، نهاية هذه المرحلة العلنية من عمل الحزب الشيوعي. وقد مر الحزب بعد هذا الموقف من المسألة الفلسطينية بازمة داخلية ادت الى انسحاب عدد من اعضائه البارزين وخاصة قدري قلعجي وهاشم الأمين . وفتح الانقلاب السوري الاول الذي قام به حسني الزعيم عام ١٩٤٩ ، باب ملاحقة الشيوعيين على مصراعيه . واستمرت هذه الملاحقات شديدة حتى سقوط اديب الشيشكلي وبدء فترة الانتشار العلني الثالث في سورية بوجه خاص .

الفصل الخامس

في دفـــة التوجيـــه

ما ان نجح حسني الزعيم بانقلابه العسكري في سورية عـــام ١٩٤٩ حتى ابتدأت بالنسبة للشيوعيين ، فـــترة ملاحقات قاسية وتضييق شديد ادت بهم الى العودة للعمل السري الذي كانوا قـد تركوه منذ عدة سنوات .

غير ان حكم حسني الزعيم لم يطل فقتـل في آب (اغسطس) ١٩٤٩ واطلقت الحريات السياسية من جديد وجرت انتخـابات الجمعية التأسيسية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩ وسارت البلاد نحو نوع من الحكم الديموقراطي المستقر . ورغم ان خالد بكداش كان مختفياً في ذلك الوقت ، الا انـــه تقدم بترشيحه ولكن الاصوات التي نالها كانت قليلة جداً بالنسبة لما كان يحوزه في السابق.

ويمكننا ان نشير الى ان السبب المهم لتحول الرأي العـــام

السوري عن الحزب الشيوعي ، يمثل هذه السرعة ، هو موقف الحزب من مسألة فلسطين وعدم مقدرته على القيام بحملة انتخابية منظمة .

المسألة الفلسطينية :

يمكننا ان نوجز هذا الموقف من فلسطين ، الذي استمر عليه الشيوعيون طوال ست سنوات او اكثر ، اي حتى بدء المرحلة العلنية الثالثة عام ١٩٥٤ بهذا المقطع الذي نأخذه من مقررات اللجنة المركزية في اجتماعها المنعقد في بلدة صورات بلبنان (١) .

« وفي القضية الفلسطينية تبين ... ان الحوادث والتطورات اكدت وبرهنت صحة موقف الاتحاد السوفياتي من قضية التقسيم ، وبالتالي صحة الموقف الذي اتخذه الحزب بتأييد قيام دولتين مستقلتين عربية ويهودية في فلسطين ، والنضال ضد الحرب

(١) تعتبر هذه المقررات وثيقة من أهم وثائق العمل الشيوعي في سورية ولبنان وهي تقع في حوالي عشرين صفحة من القطع الكبير . ولم نستطع ان نحصل عليها من مصدر شيوعي مباشرة ، بل نقلتها بعض الصحف الدمشقية والبيروتية بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ كما نشرها « القوميون العرب » ووزعوها بشكل واسع مع مقدمة لهم. اما تاريخ الوثيقة فهو ١٥/ ٧ /١٩٥٣، فهي تقع بين الثورة المصرية عام ١٩٥٢ وسقوط اديب الشيشكلي ١٩٥٤ ، وتشدد على طور العمل السري الذي كان الحزب الشيوعي يجتازه يومذاك . ورغم نشر هذه الوثيقة فان الشيوعيين لم يتصدوا لتكذيبها او التنصل منها كما ان اسلوبها والافكار الواردة فيها شيوعية دون ريب . ولذلك فقد اعتمدناها كوثيقة اصيلة حتى يثبت عكس ذلك . والمقطع الذي نأخذه عن فلسطين متوافق كلياً مع ما يقوله الشيوعيون معنى ومبنى .

الفلسطينية ، رغم المقاومات التي لقيتها هـــذه الخطة من بعض العناصر المسؤولة في الحزب ...

« ومن المهمات الرئيسية الموضوعة امـام الحزب ... ايضاح مسألة فلسطين من الوجهة المبدئية ايضاً ، فاذا كان اليهود في العالم لا يؤلفون قومية ، فان اليهود الذين تركزوا في فلسطين اخذوا يؤلفون امة في طريق التكوين ، فلهم مثـــل جميع الامم والقوميات حق تقرير مصيرهم بصرف النظر عن الظروف الـــتي رافقت مجيئهم الى فلسطين ، وكذلك بصرف النظر عن الاتجاهات الرجعية المماثلة للاستعمار الاميركي التي تتميز بهـــا البورجوازية اليهودية الصهيونية .

« ان المستعمرين الانكليز والامريكيين والرجعيين العرب والرجعية الصهيونية هم جميعاً يريدون بقاء العداء بين جماهير العرب واليهود لألهاء هذه الجماهير عن النضال ضد الاستثمار والاضطهاد وضد الاستعمار الانكليزي والامريكي وضد الرجعية الحاكمـــة نفسها ... فمسألة العمل لسيادة السلام والتقريب بـــين الجماهير العربية واليهودية وفضح مآرب الصهيونية والرجعيين العرب من منع سيادة السلام والصداقة بين الشعبين هي مسألة هامة جـــداً لاجل تطوير النضال الوطني الديموقراطي في الاقطار العربية . في الحاضر والمستقبل ...

« وينبغي القيام بنضال لا هوادة فيه ضد دعايات الرجعيين القائلة بان الخطر الصهيوني اعظم من الخطر الاستعماري ، او ان الخطر الاستعماري يمكن زواله ولكن الخطر الصهيوني اذا تمركز

فلا يمكن استئصاله ... ويشبه ذلك قول البعض ان الدولة اليهودية في فلسطين ، كدولة ، تؤلف خطراً على الشعوب العربية . فالحقيقة هي :

اولاً : ان الصهيونية هي خطر لانها عميلة الاستعمار الاميركي الانكليزي ...

ثانياً : ان الدولة اليهودية هي مثل كل الدول البورجوازية ليست كلا موحداً متجانساً . فالنظرة اليها بهذا الشكل هي نظرة قومية بورجوازية شوفينية ... ويجب ان نذكر دائماً قول ماركس بان في الامة امتين ، وذلك يصح على الدولة اليهودية التي تناضل فيها الجماهير الشعبية اليهودية ، وفي مقدمتها العمال اليهود وطليعتهم الحزب الشيوعي في اسرائيل لأجل التحرر الوطني الديموقراطي ولاجل الاشتراكية ، مثلهم مثل الجماهير الشعبية العربية والعمال العرب . فكما ان الخطر على الجماهير العربية هو من فئات الاقطاعية والبورجوازية الحاكمة الرجعية عميلة الاستعمار ، فكذلك الخطر في دولة اسرائيل ناشيء عن البورجوازية الصهيونية الرجعية عميلة الاستعمار . ولا ريب ان احسن وسيلة لأجل التعجيل في تعميق التفريق الطبقي وتعميق الهوة بين العمال والجماهير اليهودية من جهة والبورجوازية الصهيونية من جهة أخرى هي استتباب السلام في فلسطين وقيام دولتين مستقلتين عربية ويهودية ، فان ذلك ينزع سواء من الحكام الرجعيين اليهود او من الحكام الرجعيين العرب ، وطبعاً من سادتهم المستعمرين ، سلاحاً هاماً ، اذ يمكن اذ ذاك النضال بصورة انجع للتقريب

وقيام اواصر صداقة وتفاهم بين الجماهير الشعبية العربية واليهودية . »

ونحن اذا دققنا في مواضيع هذه الاقوال وجدناها كلها متضمنة في البيان الذي اذاعه الشيوعيون حول مسألة فلسطين ونشر في جريدة صوت الشعب بتاريخ ١٩ و ٢٠ / ١٠ /١٩٤٧، وذكرناه من قبل، خاصة فيما يتعلق بربط النضال من اجل فلسطين بالنضال ضد الاستعمار بوجه عام . غير ان ما ورد في مقررات صورات بعيد عن المداورة التي فرضها الطور العلني على الشيوعيين حسبما ورد في عدة مقاطع من تلك المقررات .

فنستطيع ان نميز في هذه المرحلة الممتدة حتى عام ١٩٥٨ المواقف التالية :

اولاً – الجمود في لبنان : منذ ان ابتدأت الحكومات السورية المتعاقبة بعد حسني الزعيم تلاحق الشيوعيين بشدة وخاصة ايام حكم اديب الشيشكلي قرر الحزب الشيوعي ، على ما يظهر ، اعتماد لبنان قاعدة لانطلاق اعماله ،وتجميد نشاطه الثوري فيه ، والاعتماد على العمل الهادىء الذي يوفر للحزب جواً من الطمأنينة والهدوء يستطيع معه ان ينطلق في المناطق العربية الاخرى دون ازعاج او مضايقات .

وبعد ان سقط بشارة الخوري عام١٩٥٢، واعطي الشيوعيون شيئاً من الحرية ، اصدروا جريدة اسبوعية تنطق بلسانهم هي جريدة « الاخبار » بالاضافة الى جريدة سرية اخرى كانت

توزع في سورية بوجه خاص وتدعى « نضال الشعب » . ومن المعروف انها كانت تطبع في لبنان ايضاً .

وقد استطاع الشيوعيون ، في جو الحرية السياسية المسيطر على لبنان ، ان يؤمنوا لأنفسهم مركزاً يستطيعون منه القيام بكل أعمالهم . ولم تقع بينهم وبين الحكومة اللبنانية الا حادثة واحدة عندما اصطدمت احدى تظاهراتهم مع الشرطة عام ١٩٥٣ وسقط منهم احد القتلى . وبعد هذه الحادثة اركنوا الى الهدوء.

ثانياً ـ النشاط في سورية : لم يفتأ الشيوعيون في سنوات الاضطهاد التي عانوها حتى عام ١٩٥٤ يعملون بكل حماسة ونشاط وفي شتى المجالات . ففي دمشق استطاعوا بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٣ ان ينظموا عدداً من التظاهرات المفاجئة التي كانت تتجمع دوماً في بعض اماكن الازدحام في المدينة ثم تنطلق فجأة من هناك تهتف هتافات معادية للحكومة وتردد شعارات شيوعية معينة . غير ان الشرطة كانت تقمعها بسرعة وتقبض على عدد من المشتركين فيها . ومن الجهة الثانية كان الشيوعيون يستغلون المناسبات الشعبية ليوجهوا المظاهرات ويدمغوها بطابعهم الخاص.

وركز الشيوعيون خلال فترة الملاحقات عملهم على الطلاب وخاصة الجامعيين منهم وشحنوهم شحناً قوياً بالافكار الشيوعية . وقد لاقت هذه الافكار قبولاً واسعاً بين الطلاب العراقيين الذين يتلقون العلم في جامعة دمشق ، مما ظهر اثره في العراق بعد ذلك بسنوات .

اما على الصعيد الشعبي فقد تقلص عملهم الى بعض النقابيين

والمثقفين في عدد من المدن وخاصة دمشق وحمص .

ويبدو ان الشيوعيين كانوا يدركون اهمية سورية في العالم العربي، ويعرفون الاختمارات الشعبية التي تعتمل فيها، ويدركون ان اوضاعها لم تستقر بعد ، وان مفاجآت لا بد من ان تحدث ، فقرروا ان يتخذوا منهـــا مسرحاً لعملهم في الشرق العربي ، ومختبراً جديداً لانضاج افكارهم وامكانية قوية للوصول بهم الى مراكز السيطرة والنفوذ .

ثالثاً ـ الاتحاد الوطني : كان الشيوعيون، كما رأينا في الفصول السابقة ، يطالبون منذ عام ١٩٣٦ بالاتحاد الوطني . ورغم اللين والتساهل والتراجع المبدئي التي اظهرها الحزب الشيوعي ، فان العناصر الاخرى كانت تتردد في عقد اي تحالف علني معه ، رغم التعاون الضمني المستور الذي كانت هذه الفئات تمـــارسه فعلياً مع الشيوعيين .

وعندما ابتدأت احزاب سوريا وهيئاتها تنظم حملة معارضة قوية لحكم اديب الشيشكلي، خاصة بعد انتخابه رئيساً للجمهورية واجرائه انتخابات نيابية عام ١٩٥٣ ، رأت هذه الفئات ان من المفيد لها التعـاون مع الشيوعيين الذين كانوا يقومون لحسابهم بحركة مقاومة سرية منذ سنوات . وكان على رأس الداعين لعقد التحالف مـع الشيوعيين الحزب العربي الاشتراكي الذي اسسه اكرم الحوراني . وعندما اندمج هـــذا الحزب بحزب البعث العربي واصبـــح اسم الحزب الموحد : حزب البعث العربي الاشتراكي ، قاد هذا الحزب حملة التقارب مع الشيوعيين . وبهذه

الواسطة استطاع الشيوعيون ان يحققوا حلمهم القديم بالوصول رسمياً الى تكتل شعبي له حظ قوي في الوصول الى الحكم .

وما ان استقال اديب الشيشكلي وترك دمشق في آخر شباط ١٩٥٤ حتى برز الشيوعيون وعلى رأسهم خالد بكداش ، قوة شعبية متحركة اخذت تعمل بسرعة ونشاط لاكتساب اكبر عدد ممكن من الانصار .

وفي هذا الوقت بالذات دخل في ميزان القوى السياسية ثقل جديد هو الاتحاد السوفياتي الذي ابتدأ يوثق صلاته السياسية والاقتصادية والثقافية بسورية على الاخص ، والعالم العربي بوجه عام . فتوالت الدعوات الموجهة الى رجال الفكر والسياسة والدين لزيارة الاتحاد السوفياتي واشتد التركيز الاذاعي السوفياتي على سورية ، ومنح احد كبار رجال الدين جائزة ستالين للسلام ، وتقدمت وزارات التجارة الخارجية في روسيا وبولونيا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا بعروض تجارية مغرية القصد منها ربط الاوساط التجارية السورية بالاقتصاد الشيوعي .

وفي خريف عام ١٩٥٤ افتتح معرض دمشق الدولي الاول ، فبرز فيه قسم الاتحاد السوفياتي كأوسع واضخم الاقسام على الاطلاق ، فجذب اليه عدداً هائلاً من الزائرين ، بمعداته الآلية الثقيلة وسياراته وجراراته . كما بيعت فيه آلاف من الكتب الشيوعية باللغات العربية والافرنسية والانكليزية المطبوعة كلها في موسكو ، باثمان زهيدة جداً تكاد لا تصدق ، وبقي القسم الروسي ، حديث سكان دمشق وسورية الوحيد عدة اسابيع .

وجاء الاثر النفسي الضخم الذي احدثـــه القسم الروسي في المعرض ، في افضل الاوقـات بالنسبة للشيوعيين ، لان اسابيع المعرض كانت في الوقت ذاتـــه ، أسابيع التحضير للانتخابات النيابية العامة .

وما كاد المعرض ينتهي حتى ابتدأت هذه الانتخابات وقـد دخلهـــا خالد بكداش مرشحاً عن دمشق . وكانت المعركة الانتخابية قاسية جـداً ، نظراً لكثرة عـدد المرشحين وتنافسهم الشديد على المقاعد وكلهم يتمتعون بقوة انتخابية طاغية . ورغم كل ذلك فقد قاد الشيوعيون معركة بكداش الانتخابية بتنظيم دقيق، واستطاعوا ان يحصلوا على تأييد فئات مختلفة من المواطنين، من رجال الدين في احياء دمشق القديمـــة ، الى بعض الاحزاب التقدمية ومنها حزب البعث ، وعدد من الاقطاعيـين على رأسهم خالد العظم . وقد ادى تضافر هـــذه القوى والعوامل الى فوز خالد بكداش ، في دورة الاقتراع الاولى .

ورغم ان خالد بكداش كان يحمل معـه مرشحَين شيوعيين آخرين هما نصوح الغفري وجورج عويشق ، فان ذلك لم يضعفه، بـــل تمكن ان يسجل لهما حوالي تسعة آلاف صوت في دورة الاقتراع الاولى .

وهكذا اصبح خالد بكداش اول مرشح شيوعي يفـوز بالمقعد النيابي في الشرق العربي على اساس المباديء الشيوعية المعلنة .

ولم يترك الشيوعيون هذا النصر يفوتهم فاستغلوه الى اقصى درجات الاستغلال ، واستطاعوا ان ينفذوا من خلاله الى ادق

مراكز التوجيه في الجمهورية السورية .

رابعاً – تصفية الخصوم : منذ ان دخل خالد بكداش الى المجلس النيابي السوري اتضح ان هناك انسجاماً كلياً بينه وبين نواب حزب البعث العربي الاشتراكي . وكان من اول مظاهر التحالف العمل لتصفية الخصوم السياسيين .

ولما كان الحزب السوري القومي الاجتماعي قد عاد ، بعد صدمة فشل مرشحه في دمشق ، يستعيد قواه وينطلق في عمله ، فقد تركز هجوم الشيوعيين وحلفائهم عليه منذ اواخر عام ١٩٥٤ ومطلع عام ١٩٥٥ ، وبدا للجميع ان حالة التوتر الحزبي في سورية قد بلغت نقطة انفجار خطرة .

وفي اواخر نيسان ١٩٥٥ اغتال أحد اعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي العقيد عدنان المالكي في دمشق ، فاهتاج الرأي العام للحادث ، وقفز الشيوعيون كالعادة يتعاونون مع البعثيين لضرب ذلك الحزب وتصفيته . واستطاع هذا الحلف ان يعتمد في تصفية القوميين على عنصر جديد هو الجيش السوري الذي وضع كل ثقله في الميزان .

ومن خلال حملة تصفية السوريين القوميين تغلغل الشيوعيون في عدد من اجهزة الدولة ، وظهروا ، سواء في المجلس النيابي ، او صحفياً وشعبياً كأنهم حملة لواء الدفاع عن دم المالكي . واثناء محاكمات القوميين برز اسم ضابط في الجيش السوري كان لا يزال مغموراً حتى ذلك الوقت هو المقدم – يومذاك – عفيف البزرة .

واستطاع خالد بكداش ، تحت ستار مكافحة القوميين

الاجتماعيين ، ان يدخل في التجمع القومي النيابي الذي كان عدد من النواب في المجلس النيابي السوري يعملون لتأليفه . وعندما تألف هذا التجمع عام ١٩٥٦ كان الحزب الشيوعي دعامته الكبرى ، مع حزب البعث العربي الاشتراكي وكتلة خالد العظم النيابية المعروفة باسم الكتلة الديموقراطية وعدد من اليساريين في حزب الشعب والحزب الوطني . وأصبح هذا التجمع الكتلة النيابية الحاكمة في سورية .

وفي تلك الاثناء كانت سورية تتجه بقوة نحو الكتلة الشيوعية ، فعقدت معها صفقات اسلحة بعد صفقة مصر ، ووسعت تجارتها معها ، وجلبت عدداً من الخبراء الروس. وسيطر الاتجاه الشيوعي على معظم الصحف الصادرة في دمشق ، وأصدر الحزب الشيوعي جريدة خاصة به هي جريدة « النور » . كما تمتع الشيوعيون برعاية رسمية لم يعرفوها في اي وقت مضى من حياتهم ، وباتوا كأنهم الحزب الرسمي للحكومة .

غير ان قوى شعبية اخرى ، غير الحزب السوري القومي الاجتماعي ، كانت تنظر لهذا الامتداد الشيوعي نظرة حذر وخوف ، فحاولت جهدها ، عن طريق العمل البرلماني ان تغير هذا الاتجاه او تحد منه ولكنها فشلت في ذلك .

وفي اواخر عام ١٩٥٦ اكتشفت مؤامرة تدبر لقلب الاوضاع في سورية . فقبض على عدد من الشخصيات السياسية والبرلمانية التي اشتركت فيها وعلى رأسهم عدنان الاتاسي ومنير العجلاني بالاضافة الى عدد آخر من الضباط والجنود .

وكانت المحاكمات التي تلت هذا الاكتشاف وسيلة لتثبيت السيطرة الشيوعية على سورية وتصفية البقية الباقية من الخصوم السياسيين . ومن الجدير بالذكر ان عفيف البزرة ـ الذي كان قد اصبح عقيداً في الجيش ـ هو الذي تولى رئاسة المحكمة العرفية التي نظرت في هذه الدعوى .

واستخدم الشيوعيون وحلفاؤهم اثناء حملات التصفية هذه وسائل مستحدثة في الارهاب والتنكيل ، واشاعوا في سورية جواً من الخوف والذعر والقلق لجم الالسنة وكم الافواه وشل العزائم ، وأصبحت تحركات الشيوعيين تتم في جو مطلق من التفرد والحرية ، دون منافس او منازع .

وفي صيف عام ١٩٥٧ اكتشفت مؤامرة ثانية قام بها بعض العسكريين لقلب نظام الحكم في سورية وكان اكتشاف هذه المؤامرة الحافز الاخير لدفع الشيوعيين جهاراً الى الحكم ، فقفز عفيف البزرة من رتبة عقيد الى لواء وُعين رئيساً لاركان الجيش ، فامر بتسريح الضباط القدامى الذين كان يشك في امكانية قبولهم بالمخططات الشيوعية ، واجريت تنقلات واسعة بين الضباط وصل بواسطتها الضباط الشيوعيون او الموالون للشيوعية الى ادق مراكز الجيش واكثرها حساسية .

وسارت مع هذه الحملة في صفوف الجيش حملة اخرى لا تقل عنها شدة في صفوف الشعب والحكومة . فسرح عدد من الموظفين ونددت الصحف ، ومعظمها ضمن التوجيه الشيوعي ، بكثير من السياسيين حتى طمست اصواتهم .

وهكذا لم يبق في وجه الشيوعية في سورية اية قوة معادية .

خامساً – نحو السيطرة التامة : يمكننا ان نعتبر الفترة الواقعة بين منتصف عام ١٩٥٧ واعلان الوحدة السورية – المصرية في شباط ١٩٥٨ الفترة الذهبية في حياة الحزب الشيوعي السوري . فسورية مرتبطة نهائياً بالاتحاد السوفياتي ، سواء بقروض مالية كبرى ، قد لا تستطيع وفاءها ، او بصفقات الاسلحة الضخمة او بالمشاريع العمرانية والاقتصادية التي تنفذ بواسطة الخبراء الشيوعيين او عن طريقهم ، كما ارتبطت ايضاً بواسطة البعثات العسكرية الى روسيا ، والبعثات الثقافية والعلمية وبعثات الطلاب وغير ذلك . وتمكن الشيوعيون من فرض اللغة الروسية لغة رسمية في المدارس والجيش . وانساق العديد من المثقفين والسياسيين والشباب والعمال والفلاحين خلف الحزب الشيوعي .

وكان من المقرر ان تجري انتخابات البلديات في سورية في خريف عام ١٩٥٧ ولكنها اخذت تتأجل اسبوعاً بعد اسبوع حتى الغيت نهائياً في اواخر العام. اما السبب في ذلك فعائد الى ان حلفاء الشيوعيين لاحظوا، بعد فوات الاوان، ان القوى الشعبية قد انزلقت كلها تقريباً الى احضان الشيوعيين ولم يبق معهم الا بقايا ضئيلة منها .

وازداد ، في هذه الآونة ، ضغط الشيوعيين لحل المجلس النيابي القائم وانتخاب مجلس جديد في ربيع عام ١٩٥٨ ، اي قبل انتهاء مدة المجلس بعدة شهور . وحجتهم في ذلك كثرة عدد النواب الذين تركوا البلاد بعد اكتشاف المؤامرات المتكررة .

ويعرف الشيوعيون ، كما يعرف حلفاؤهم السابقون ايضاً ، ان اية انتخابات حرة في سورية سوف تدفع بالشيوعيين وحلفائهم المستمرين اشواطاً بعيدة الى الامام ، وتصل بهم ، بصورة شرعية الى استلام زمام الحكم في البلاد .

وعند ذلك اتجه المسؤولون السوريون ، الى اتمام الوحدة مع مصر ، تخلصاً من شبح السيطرة الشيوعية الماثل امامهم .

سادساً ـ الشيوعيون وحلفاؤهم : عندما دخل خالد بكداش المجلس النيابي السوري ، دخله على اساس برنامج اصلاحي متواضع ليس الا نسخة عن الميثاق الوطني المعلن قبل عشر سنوات ، وما فتيء بكداش يردده في كل مناسبة . وهذا مثلاً ما قاله عام ١٩٥٥ في احدى خطبه في المجلس النيابي السوري ، بمناسبة تسلح مصر ، وهو منشور في كراس خاص :

« وقد اعلنا دائماً نحن الشيوعيين ، ونعلن اليوم ، ان محور سياستنا هو البحث عن نقاط الاتفاق لا عن نقاط الخلاف مع جميع الوطنيين المخلصين ...

« ان برنامجنا في مرحلة التحرر الوطني والديموقراطي التي تجتازها بلادنا ، واضح كل الوضوح وهو : تعزيز الاستقلال والسيادة وتوطيدهما وممارستها فعلاً على اوسع نطاق ، المساهمة في توطيد السلام العالمي واحباط مشاريع الاستعمار ورد مؤامراته المباشرة منها والتي تحاك بواسطة عملاء الاستعمار ... ثم توطيد الديموقراطية وتعزيزها ، وتحرير اقتصادنا ، والعمل على ازدهاره واصلاح زراعتنا ، ورفع مستوى جماهير العمال والفلاحين وجميع

الكادحين لكي يشعروا ان لهم وطناً يتمتعون تحت سمائه بالعيش الانساني والكرامة . وبعد انجاز مرحلة التحرر الوطني الديموقراطي ينفتح الباب على مصراعيه لمرحلة ارقى هي مرحلة الاشتراكية التي شعارها : « من كلٍ حسب كفاءته ، ولكلٍ حسب عمله كماً ونوعاً » و « من لا يعمل لا يأكل » .

« وتقرر الاشتراكية العلمية ، ان طريق كل شعب نحو الاشتراكية ينسجم مع خصائص هذا الشعب ، ومع تطوره التاريخي ، وظروفه الاقتصادية ، وخصائصه القومية الاخرى .

« ذلك هو برنامجنا ، وتلك هي اهدافنا الكبرى . فدلونا على ما يتنافى مع مصلحة سوريا العليا ؟ »

وبالفعل فان كثيرين لم يجدوا في هذا المنهاج ما يمنع عقد تحالف مع الشيوعيين ، وقد فاتهم ان الهدف العميق من وراء هذا المنهاج هو الوصول الى استلام الحكم كاملاً ، فتنتهي بذلك مرحلة التحرر الوطني الديموقراطي ، وتبدأ المرحلة الشيوعية الصريحة .

وظن عدد من الذين تحالفوا مع الشيوعيين انهم يستطيعون تسخير الحزب الشيوعي للوصول الى اغراض معينة ، خاصة في الداخل ، دون ان يدركوا ان الشيوعية اقدر منهم على اجتذاب الجماهير ، والسيطرة على افكار الشباب وعواطفهم ، وان بامكانها ان تخلق في النفوس ايماناً عميقاً تعجز عنه كثير من المنظمات والتشكيلات الاخرى التي تتوهم في نفسها المقدرة على تسخير الشيوعيين . ومن جهة ثانية فان هذه التشكيلات السياسية معرضة

هي نفسها ، لأن ينسل اليها الشيوعيون المستترون ويعملون على تلقيحها بشعاراتهم وأفكارهم وغالباً ما يتوصلون لتوجيهها وضبطها ضمن الاتجاه الشيوعي العام .

لقد وجد الحزب الشيوعي في سورية كثيراً من الحلفاء الذين، ما ان وضحت قوته ونفوذه، حتى تهافتوا عليه وراحوا يتبرعون لتأييده وترويج افكاره وشعاراته . وعرف الحزب الشيوعي بدوره كيف يستفيد من انتهازيتهم وضيق افقهم فاستغلهم الى آخر درجات الاستغلال ، وامتص آخر قطرة من الفائدة الكامنة فيهم .

ولم يتسع الوقت امام الشيوعيين لينهوا مرحلة التحرر الوطني الديموقراطي بسلام ، وينقلبوا على حلفاء الامس واحداً واحداً يعملون فيهم تصفية وتمزيقاً ، كما اعتادوا في كل بلد تمكنوا منه ، لان الوحدة بين سورية ومصر ، وضعت حداً للسيطرة الشيوعية على سورية .

سابعاً ـ الحزب الشيوعي والوحدة : منذ ان ابتدأت المفاوضات لاعلان الوحدة السياسية بين سورية ومصر ، وقف الحزب الشيوعي في سورية موقفاً متحفظاً من هذه الوحدة . وفي منتصف كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨ اذاع الحزب بياناً يؤيد فيه « الاتحاد » بين سورية ومصر . وعندما تم الاتفاق على «الوحدة» التامة وعرض الامر على المجلس النيابي السوري ، غادر خالد بكداش دمشق قبل الجلسة المخصصة للتصويت على مشروع الوحدة ، مع عدد من قادة الحزب بعد ان اعلن عدم موافقته

على الوحدة واقترح قيام دولة اتحادية مؤلفة من دولتين لكل منهما استقلالها الداخلي التام بمجلسها النيابي ووزارتها ، على غرار ما يجري في الاتحاد السوفياتي .

غير ان هذه المعارضة للوحدة بقيت ضمن نطـــاق المعارضة النظرية ولم ينجم عنها احتكاك فعلي بين سلطات الجمهورية العربية المتحدة والشيوعيين في سورية .

وفي تموز ١٩٥٨ انقلب مـــيزان القوى في الشرق الاوسط بثورة العراق ، وانفتح أمام الشيوعيين مجال رحب للعمل الشعبي فاندفعوا فيه واوغلوا . وعند ذلك عاد خالد بكداش فجأة الى دمشق وطرح مشروعاً جديداً للعمل في سورية يتألف من ثلاث عشرة مادة تدعو الى اقامة علاقات بين مصر وسورية على اساس اتحادي لا وحدوي .

وكان هذا البيان نقطة انطلاق حملة شيوعية في سورية هدفهـا مقاومة الوحدة مع مصر وتبعها لجوء عدد من قـادة الشيوعيين السوريين الى العراق ، بينهم عفيف البزرة بالذات .

واشتد الضغط على الشيوعيـين ، وابتدأت السلطات باعتقالهم وسجنهم واذاقتهم بعض ما اذاقوا خصومهم قبل سنوات .

وبذلك عاد الحزب الشيوعي في سورية مرة جديـــدة الى العمل السري الذي تعوده واتقنه .

خاتمـــة

هذه الفصول السريعة من تاريخ الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، تعطينا اذا درسناها بدقة وتجرد ، فكرة عامة عن مقدرة الشيوعيين على السيطرة على افكار الجماهير بمسايرة نزواتها وانفعالاتها ، ومقدرتهم على الانقلاب المفـــاجيء من نقيض الى نقيض ، وسترهم حقيقة مقاصدهم عن الشعب وابراز ما لا يخيف ولا ينفر .

كما انها تعطينا من جهة ثانية برهاناً على قوة الشيوعيين الكامنة خاصة في سورية ، وعلى الاخص في دمشق ، حيث دلت نتائج الانتخابات التي خاضها خالد بكداش ، على ان فترات الضغط التي لاقاها الحزب لم تنقص رصيده الشعبي بل كانت تزيده مرة بعد مرة . فمن انتخابات ١٩٤٣ الى انتخابات ١٩٥٤ قفزت ارقـــام خالد بكداش من ١٣٠ ناخباً ثانوياً اي ما يعادل ١٦ بالمئة من الاصوات الى اكثر من سبعـة عشر الف صوت اي حوالي ٧٥ بالمئة من اصوات المقترعين . واذا كان خالد بكداش يستقطب

حول شخصه عدداً من الاصوات التي تعطى له بذاته ، لا لحزبه ، فان الاصوات التي نالها رفيقاه في انتخابات عام ١٩٥٤ دلت على ان للشيوعيين كشيوعيين حوالي تسعة آلاف صوت في دمشق اي ما يقرب من ٤٠ بالمئة من الاصوات التي اقترعت يومذاك .

ومن هنا امكننا ان نقول ان جذور الشيوعية ، قد اصبحت بعد اكثر من خمسة وثلاثين عاماً من العمل المتواصل ، عميقة في الشعب ، وان معالجتها ليست بالعملية السهلة البسيطة السطحية .

فهرس الكتاب



